غادة السمّان

الأعمال غير الكاملة

زمن الحبّ الآخر

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت – ص . ب ١٨١٣ ١١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٧٨
الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٧٩
الطبعة الثالثة
نيسان (ابريل) ١٩٨١
الطبعة الرابعة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤
الطبعة الخامسة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨

مصارحة

١ ـ هذه الكتابات كان من المفترض ان تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .

كان من المفترض ان تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الاولى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن اصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة اكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ـ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ـ ولكن بالدرجة الاولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضي الكتابي ، وهي ككل ماض **لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنّيه كلية** .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ـ ليس هنالك فنان يرضى عن اعماله القديمة ـ إلا فيما ندر ـ ولست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني

الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ — اعتقد ان العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر في القصص التي سبق نشرها . فالقصة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين والى الأبد . هذا بالإضافة الى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه — لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه — أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدةلكتبي (!) وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ — اللمسات القليلة التي ادخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ — رتبت محتويات الكتاب ابتداء من أقربها الى الحاضر. ومع كل صفحة يطويها القارىء ، يزداد إيغالاً في بدايات حروفي وقلبي ، حتى يصل الى أول قصة كتبتها ، وأول جرح في روحي يصرخ علناً على طول اللغة العربية وعرضها ، اي على طول قلب مئة واربعين مليون قارىء عربي (ممكن) وعرضه وعمقه .

٦ — « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الاعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الاعمال ليست «كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري — مهما كان مبدعاً — هذا أولاً .

وهي ليست «كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف اتصور انه يستحق حداً أدنى من الحرص — أي مختارات من اعمالي —

(ما عدا اعمالي القصصية التي يضمها هذا الجزء الأول ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن —كما أتصور— في كتابة القصة) .

وهكذا فإن كتبي التالية التي ستصدر عن هذه السلسلة « الاعمال غير الكاملة » سواء في « الدراسات الادبية » و « أدب الرحلات » وغيرها ، ستضم **مختارات** منتقاة من أعمالي مجمعة حسب موضوعاتها ، ومرتبة وفقاً لتاريخها الزمني بدءاً بما هو أقربها الى الحاضر وانتهاء بالماضي الاكثر بعداً .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الاعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً الى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الاعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد !...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ — ٩ — ٧٨

إهـــداء ما

أهدي هذا الكتاب الى النسيان ،

آملـــة أن يرفضه !..

غـــادة

الحياة بدأت للتوّ

لتبدأ الحياة كل يوم من جديد ، كما
لو أنها بدأت للتو .

غوته

ارفض وضع المرأة كـ « عبدة بيتية »
تهدر طاقاتها في كدح غير منتج
إلى حد غير معقول ، حقير ،
مثير للاعصاب مبلد ، وساحق
الوطأة .

فلاديمير ايليتش

* نشر ثلثها الأول فقط تحت عنوان « وافترسوا الذئب » عام ١٩٧٥ ثم توقفت المجلة عن الصدور . أعيد النظر فيها ليلة ٥ و ٦ /٨/ ٧٨ .

٢٣/ ١/ ١٩٦٧

الحياة بدأت للتو

لماذا أنا هنا ؟ ...

كيف وصلت الى هنا ؟ ...

من أنا بالضبط ؟

لا أذكر الكثير . لا اريد ان أتذكر المزيد .

لولا تلك الذئبة الصغيرة المدللة السجينة في قفصها الذهبي القضبان ، لولا عواؤها لامعنت في النسيان . حتى اسمي نسيته ، وتستطيع ان تخاطبني بأي اسم تشاؤه . سمني حواء أو جانين أو زيزفونه أو عنبره او عائشة أو سنجابة أو أقحوانه أو غيمة او كوخ او مقبرة او قبّرة .. الامر سواء لـــدي ...

لولا تلك الذئبة الصغيرة في القفص الذهبي لما تذكرت ان اسمي هو بالتأكيد : عيوش .

... واستطيع ان اسمع عواءها بوضوح ، بالرغم من ضجيج موسيقى الميكرفونات الستة المبثوثة في الحديقة ، وبالرغم من عشرات المحادثات الذكية والغبية التي تدور في الحفل ، وبالرغم من الهمسات التي تلتقطها اذناي كصرخات (**اذا اردت ان تخيفيني لا تصرخ بي. أهمس ، وسأقفز**

هلعاً) ... وبالرغم من ضجيج الكؤوس والملاعق والصحون والتجشؤ وقرقرة البطون ، وصوت الأمواج القادمة من البحر والتي لا يعلو عليها صوت في أذني (غير صوت استغاثة الذئبة في القفص الذهبي) والصوت الغامض للحديقة الكثيفة الاشجار كغابة مدارية ، ذلك الصوت القادم من الاغصان والطيور والحشرات ومن اطباقة اوراق الاجمات الكثة وتنفس الزهور وركض النسغ وامتصاص الأرض للماء وترحيب قشرة الشجرة بسقوط الندى . هذا ايضاً استطيع ان اسمعه ..

من أنا ؟

لماذا أنا هنا ؟.

كيف وصلت الى هنا بالضبط ؟

أية أصوات غامضة تشق طريقها عبر صدري كالمخالب ، وتحاول إرغامي على الإنصات اليها ، وتفتح في صدري ثقوباً ، أحاول عبثاً سدها بأصابع رجال يتقنون ألعاب خفة اليد والحواة والمقامرة ... وصوت الذئبة ... اسمع صوتها بوضوح كما لو كان قادماً من صدري .. كما لو كان صدى لصرخة متقنة الاخفاء في ركن مهجور من نفسي .

يصرخ بي جاك محاولاً ان يعلو صوته على السيمفونية الليلية للحفلة الساهرة في ضاحية بلدة « حمامات » بتونس : أنت شرقية ساحرة قادمة من خيام ألف ليلة وليلة ...

اجيبه بالعربية التي لا يفهمها طبعاً : وأنت « ذكر » أحمق قادم من « مونتمارتر » بباريس حاملاً أفكاره الثابتة عني وعن شعبي ...

يقول بالفرنسية : أنت جارية ساحرة ... أنت « عاهرة » تاريخية ساحرة ...

اقول بالعربية : وانت جميل الجسد فارغ الروح .. هذا هو « العهر »

وهو ايضاً وصف يمكن أن ينطبق على الرجال لا النساء وحدهن ...

يقول بالفرنسية : أنت شرقية لعوب ... لماذا تحاورينني بلغة لا افهمها...

اقول بالعربية : لست شرقية بالمعنى (السياحي) الذي تتوهمه ايها الاحمق ... ولو تحدثت بالفرنسية لوقع سوء التفاهم نفسه. المأساة « فكرية » لا « لغوية » . إنها في « المضمون » لا في « القالب » .

يقول بالفرنسية وقد بدا وكأن اللعبة تروق له : أحب رأسك الجميل ...

اقول بالعربية : رأسي ليس مجرد ديكور صحراوي محرض للغرائز ... لو عرفت ما يدور فيه لهربت مني ...

يقول بالفرنسية : أحب نساء ألف ليلة وليلة اللواتي خلقن للحب مثلك !... زوجتي بباريس مديرة شركة تعمل وتفكر . كم اكره ذلك...

اقول بالعربية : اكثر الرجال البورجوازيين يكرهون ذلك. إنه ضد نظامهم القائم .

يقول بالفرنسية : أنا أحب ان تظل الانثى انثى ...

اقول بالعربية : وانا اكره ان يظل الرجل رجلاً بالمعنى العتيق لهذه الكلمة ...

يقول بالفرنسية : زوجتي مديرة شركة ...

اقول بالعربية : وانا سأصير مديرة مجلة ... وهذا لا ينفي انني خلقت للحب بل يؤكده ... ولكن ، اي « حب » ؟..

يقول بالفرنسية : ايتها الجارية ، كم ثمنك ؟

اقول بالعربية : ايها الرجل ، لو اعجبتني لسألتك : كم ثمنك !..

يقول بالفرنسية : احب النساء ...

أجيبه بالعربية : كنت أحب الرجال كجزء من حبي للكون بكل ما فيه .. لولا الخلل المرير الذي وقع لي مؤخراً..

– حب النساء يذلني ...

– وانا ايضاً حب الرجال يذلني ... لكنني افتش عن حب لا يذلني ... افتش عن « الحب الآخر » الانساني حقاً .. احلم بالمساهمة في بناء زمن الحب الآخر ... ولكني الآن مفتتة من الداخل ..

– أنت جنية بحر عجيبة . لماذا تحاورينني باستمرار بلغة لا أفهمها ؟ بالفرنسية أقول : الذئبة تعوي في سجنها . هل تسمع ذلك ؟

يتخلى عني جاك فجأة حين تمر بنا كريستين راقصة ، ويذهب ليرقص حولها منضماً الى كوكبة من عشاقها حالياً : ميناتور ، انطونيو وشارل (شارل زوجها . شارل زوجها ؟) ... و .. لا اعرف بعد اسماء البقية : لماذا أنا هنا ؟ ...

هذه الغيوم الرمادية التي تغلي ورأسي مرجل . هذا العذاب المرير .: هذا الهرب اللامجدي ... من أين ؟ كيف ؟ لاثياب معي سوى ما تعيرني اياه كريستين وهذا أمر لا يهمني كثيراً في طفولتي كنت ارتدي ثيـــاب الاثرياء التي يتصدقون بها علينا واعتدت ان لا يكون قياس ثيابي صحيحا . الأهم : أين اوراقي ؟ ذاكرتي ؟ اين اين عيوش ؟ اين أنا ؟

من أين جئت؟ ولماذا ؟

(تركض مسعورة . الأرض تركض مسعورة تحت جنح الطائرة .

تمددت على المقعد الجلدي ، تركت رأسي يسقط مغمض العينين . في داخله آلاف الوجوه ما تزال تتحدث وتصرخ وتحرك عيونها المفتوحة المتشنجة بسرعة معتوهة ، وأنا أجيبها جميعاً في وقت واحد . وددت لثانية لو أسكتها كلها لأقول لها شيئاً معيناً خافتاً وشاحباً أو أطبق جفونها المحمرة المريضة لثانية كي تنبعث في عيني صورة أكاد أضيعها ، لكنني أستمر في هذياني

القصديري السريع الهستيري الذي يتحد مع هدير المحركات وحتى الألعاب النارية المائية الملونة التي تتوهج لثانية مريحه تنطفيء ... كنت أنتظر لحظة الإقلاع بهوس ...

لحظة إقلاع الطائرة . دوماً كانت تملأني بلذة غامضة.. تلك الثانية الفاصلة حينما فجأة تكف الأيدي عن شدي إلى الوراء ، ويخفت الهدير ، ويموت عدو الأرض تحت الأجنحة ويتوقف كل شيء عن الحركة الآلية العصبية وتبدأ لحظات من العوم في محيط مغبر الضباب.. وتنطفيء العيون داخل رأسي وتغيب إشعاعاتها الشريرة المعدنية ، ولا يبقى سوى عيني ، وشعاعهما الخاص أرسله على الأشياء والأحداث، فأرى بوضوح وأدرك من أنا وما أنا، وأين وصلت وإلام أنتمي ، وأهدافي نقاط مضيئة ، هكذا كنت أرحل فيما مضى دون أن يحيرني أي شيء .. فالواقع أنني كنت مثبتة إلى هذه النقاط المضيئة كمجموعة من النجوم ، وكان من السهل تفسير أو مواجهة أي شيء على هديها .. ولم أكن أنا التي أرحل وإنما المشاهد هي التي تنزلق أمـــام عيني ... هذه المرة كنت أعرف أن كل شيء قد تخلخل ... ومنذ زمن غير طويل ... الأرض تركض مسعورة تحت جناح الطائرة .

والصراخ داخل رأسي مروحة قاطعة الجوانب تدور مخترقة عظام صدغي.. وآلاف الوجوه تتحدث وتصرخ بلا رحمة ... ثم صورة خاطفة تنشر في عالمي سحابة من الألعاب النارية الملونة والمحرقة في آن معاً . لم أشعر بأية رغبة في مناقشة أي شيء . كنت أتوق إلى لحظة الإقلاع العجيبة .. أتوق إلى إقلاع حقيقي قد يكون هرباً أو بداية جديدة أو عودة إلى بدايتي القديمة . تركت رأسي يسقط من جديد وتذكرت رغم زحام حوار العويل أنني وعدت بأن أبعث مقالاً من مطار المحطة القادمة ... ثم فجأة ، انفصلت الطائرة عن الأرض وفي هذه اللحظة بالذات أحسست بما يشبه البرق داخل جمجمتي ثم أبخرة ضبابية

رمادية ثقيلة تملأوها وتنتشر وتصمت الأصوات وتموت الصور ، وتغمرني سكينة عجيبة ... وأحسستني أرحل حقاً ، سمكة بلا بارحة ولا غد . ولكن هل ذلك ممكن حقاً ؟ كانت هنالك صورة وجه مختلطة ممتزجة مع عشرات الوجوه أعجز عن أن أستعيدها ، ولم أعد أذكر بالضبط ما كان بيننا ، ولا أعرف فيما إذا كان ذلك الوجه الذي انطفأ في الضباب أخاً أو أباً أو حبيباً ، ولم أشعر بكراهية أو أسف أو فرح أو أي شيء ...

وجدتني في طائرة تغمرها الظلمة . لا أذكر من أين انطلقت ، لا أدري إلى أين أنا ذاهبة ، لكنني كنت أستطيع أن ألتقط فتات أصوات وملامح من من الميناء الذي خلفت لو أردت ، لكنني لم أجد أي مبرر لذلك . لم يعد يهمني أن أعرف من أين ، كأني ولدت للتو في الطائرة وكل شيء جديد وغريب نحن في مطار روما . هكذا قالت المضيفة وهي توقظني .

سرت في فسحة المطار الاسفلتية نحو الأبنية المضيئة . الليل منعش والفجر قد بدأ يبلل حافة الأفق وغمرتني رغبة طفولية منسية : أريد أن أركض ، أن أقفز هكذا ، أن أسبح في الضياء الفضي حتى أتعب فأنام تحت جنح طائرة ما .

المضيفة ثانية . سألتني : ترانزيت إلى تونس ؟ فسقطت الكلمات كأنها من عالم آخر وموجهة إلى شخص آخر .. ترانزيت ؟ دوماً كنت مواطنة في ليل الترانزيت بالرغم من أنني كنت أضع قدمي من آن إلى آخر على أرض قارة الانتماء . نعم (ترانزيت) يا سيدتي . البارحة وغداً (ترانزيت) هنا وهناك وفي كل مكان !

قال لي موظف شركة الطيران المختص : آسف .. هنالك اضراب ، ويجب أن تنتظري في المطار ريثما نستطيع تحويلك إلى طائرة شركة أخرى.. سأسجل أسمك في لائحة المنتظرين ...

وبينما هو يفتح جواز سفري وينقل اسمي ، تلصصت وحفظت اسمي : عيوش . « عيوش » يذكرني بالحي الفقير الذي أنتمي إليه .

على المقعد الجلدي في قاعة الانتظار بالمطار تمددت ، كل ما يدور لا يعنيني . مشهد المسافرين الغاضبين لتأخر طائرتهم يسليني ، هل هنالك حقا ما يستحق أن يسارع الانسان إليه ؟... لم أستطع أن أصدق أنني كنت إلى ما قبل ساعات مثلهم ...

من جديد عادت يد تهزني ، فتحت عيني . امتلأتا ثانية بصورة موظف شركة الطيران . أهب بسرعة . أحمل حقيبة يدي ، وأستعد للعدو نحو الطائرة.

قال بانجليزية أصيلة ، بصعوبة ميزت إسمي خلالها : مدموزيل أيوش مدموزيل أيوش ؟

– نعم عيوش .

– أريد التأكد من رقم حقيبتك على بطاقة الطائرة. أعطيتها له.غاب بها في الزحام . زحام .

زحام من الركض . النور يملأ المكان . إذن هو يوم جديد.. زحام من السيقان المتحركة بسرعة . المطار دكان بائع ألعاب جهنمي ، والدمى كلها انطلقت مسعورة و (زمبركاتها) معبأة حتى آخرها ...

عاد موظف شركة الطيران ليقول : «حقيبتك مفقودة لم نعثر لها على أثر . لعلهم شحنوها خطأ على طائرة أخرى. الفوضى متفشية اليوم بسبب إضراب بعض العمال » .

فليضربوا ! ولتذهب حقيبتي إلى الجحيم ! أبي العامل لم يكن ليجرؤ على الاضراب وإذا فعل جوّعونا . ظللنا نجوع ، اخوتي وأنا حتى صرنا في سن تسمح لنا بالعمل .

الموظف النشيط يكرر : حقيبتك مفقودة . قلت له : شكراً .

ظل واقفاً ينتظر أن أقول شيئاً آخر . قلت له : هذا رائع ! شكراً .

وجهه ممل يبعث على النعاس . تثاءبت . استلقيت واغمضت عيني فغابت صورته وازداد المطار ضجة . يبدو أن عزل حاسة عن العمل ينشط حاسة بديلة. من جديد ، ميزت صوته وهو يقول : جئتك بالأوراق الخاصة بتقديم شكوى .إني آسف فعلاً من أجل حقيبتك ...

من قال له إنني أريد تقديم شكوى ؟.. فتحت عيني ، وسألته : شكوى ؟ لماذا ؟..

– من أجل حقيبتك ...

– آه . أجل . حقيبتي .. في الحقيقة أريد تقديم شكوى ضد أشياء كثيرة أخرى ! حقيبتي لا تهم .

قال بحنان مصطنع : يبدو أنك متعبة ...

قلت له : كلنا متعب وقد ضيعنا أشياء كثيرة بالاضافة إلى حقائب السفر ، لقد ضيعنا السفر !! إننا نحمل كل شيء معنا داخل حقيبة رأسنا . أريد أن أقدم شكوى ضد السفر الذي ضاع !! .. ورأسي الذي ضاع . وعاد الضباب يفور .. لا أدري لماذا أرفض أن أذكر أني ذاهبة .. ذاهبة .. إلى أين ؟.. آه إلى حفلة افتتاح الكازينو الكبير الذي أنفقت « كريستين » الملايين من أجل إعداده . للكتابة عنه لصحيفتي ... بدعوة منها .. هنالك عشرات من الصحفيين الأجانب المدعوين أيضاً ... سهرات .. فرق راقصة .. مسرح.. هذه (آخرتك) يا رفيقة عيوش . تذهبين للكتابة عن افتتاح كازينو ...

وأنا أتجه نحو الطائرة التي ستقلني إلى الشاطىء الأفريقي بتونس ، حيث المرأة الأسطورة والكازينو الأسطورة ، كانت نظرات موظف الشركة ترمق ثوبي (المجعلك) بشفقة ، فقد قضيت يوماً وليلة على المقعد الجلدي بقاعة الترانزيت بلا حراك .. لم أشعر بأي جوع أو عطش ، وكنت شبه فرحة

بمراقبة العالم المرعب المتحرك المسلي من الوجوه العابرة وأصوات الإعلان عن الطائرة ومناداة بعض الركاب بأسمائهم وجواز سفر ضائع وكاب أسود شارد .. تذكرت بحزن : ذات مرة ، لم أر في هذا المطار سوى الفتيات اللواتي يمكن أن يعجبن احمد والهدايا التي قد يرغب بها ، اشتريت (بلوزة) قد يحب لونها وثوباً سوف تعجبه شخصيتي فيه ، واسمع فقط النداء الخاص بالطائرة التي ستقلني إليه ، واسم المدينة التي هو فيها أو التي سبق وزارها وحدثني عن مغامراته فيها أو التي قال أننا سنزورها معاً ذات صيف ...

وأنا أصعد سلم الطائرة ، أحسست أن تلك الذكريات تخص أخرى.. وأنني بلا حقيبة ، ولا ذكريات ولا عناوين أبعث لأصحابها بالبطاقات ، ولا شيء ... وفي مقعدي أخرجت قلماً وورقة وأطلقت يدي حيواناً أليفاً يجوب حقلاً من الرمل على هواه ، وحينما حانت لحظة الإقلاع إلى تونس ، وجدت كلماتي على الورق كجدرانيات كهف إنسان حجري .. بلا ماض ولا عقد ولا ثياب ولا غد ... وكانت كتابتي تشبه لطخات ما قبل اختراع الأبجدية ..

وحينما بدأت الأرض تركض من جديد مذعورة تحت جنح الطائرة ، لم أشعر بها ، وإنما أحسستني أعوم في الفراغ الرمادي مستمرة في إقلاعي منفصلة عنها ... أغمضت عيني ...

رميت برأسي وأدرت عيني إلى داخل جمجمتي.. ولم يكن هنالك سوى تلك الضبابة الرمادية ... ثم ، لا شيء ... نمت ... نمت حتى أيقظتني المضيفة.. ثم ؟... ثم لا شيء ... مرافق في المطار ينتظر ، ثم كريستين . قدمت لها جواز سفري وطلبت منها أن تقدمني لنفسي ، وأن تذكرني باسمي من وقت لآخر... يبدو أن (جنوني) راق لها — أولئك الأثرياء — يحبون السلوك غير المسؤول .

وكنت قد نسيت أنني قد أضعت حقيبتي ، وحينما سألتني عنها لم أجد

ما أقوله فظللت صامتة، ثم تعثرت يدي بورقة في جيب ثوبي (المجعلك) ، وحين فتحتها وجدت فيها إيصالاً يؤكد أنني قد أضعت حقيبتي ، فقدمته لها بصمت ، وقررت كريستين أن تضمني إلى قائمة ضيوفها المقربين في دارها مما يسهل الإعارة والاستعارة في موضوع الثياب كما ادعت ، واعتقد أنها كانت ترغب في تسلية ضيوفها بمزاجي الغريب ... ولم أفهم مدى (التكريم) في عرضها ؟ كنت مذهولة وليست لدي أية رغبة وليس هنالك ما أرفضه أو أتمناه ... حتى ...)

آه لو تقلع الذئبة عن صراخها لاسترحت ... لاسترحت ؟ لو تصمت ...

ولكن ، حتى حينما تصمت، ازداد سماعاً لصراخها الصامت ...

آه تلك الذئبة وحيدة في القفص الذهبي . كلهم يريد سجنها ولا أحد يفهم لغتها ... وكريستين ، صاحبة هذه الدار الغريبة ، ما تزال تضرب جلد النمر تحت قدميها ، ترقص وحيدة وبوحشية رشيقة ، ودون ان يبدو عليها اية مبالاة بالشبان الذين يدورون حولها ... تبدو وحيدة مع ايقاع الطبل ، وملمس جلد النمر على جلد قدميها العاريتين ... تبدو وحيدة ونائية حتى في حوارها مع ضربات الطبل .

يخيل الي انها ايضاً تسمع عواء الذئبة الوحيدة في الحديقة المظلمة .. منذ وصلت هذه الذئبة وتم سجنها في القفص الذهبي ، تبدل سلوكنا نحن النساء جميعاً هنا ..

(لماذا أنا شوفينية أحياناً ؟ تبدل سلوك بعض النساء هنا وبعض الرجال أيضاً !) ..

الرقص يشتد ، وعلى الجدران رؤوس حيوانات محنطة معلقة . صرخات تنطلق من حناجرها المذبوحة .. رائحة البخور ، عدد كبير من الراقصين المتعبين ينسحب .. يرتمون على جلود الحيوانات المختلفة التي فرشت في ساحة الدار فوق أسرجة مرمية بين وسائد كثيرة ملونة ... أسرجة على الارض بلا احصنة ! ماتت الاحصنة ومات الرحيل والهرب ولم يبق إلا هنا ... الا هذا ...

لماذا انا هنا ؟ (كيف وصلت الى هذا الدرك المنحط) . لا اريد ان اذكر . تعبت تعبت تعبت .... من انا بالضبط ؟. ادير عيني الى داخل جمجمتي . لا شيء سوى ضبابة رمادية تتضح خلالها لثانية صورة تلك الذئبة الصغيرة الوحيدة خلف ذهب القضبان وحكايتها الغامضة التي ترسلها في الليل ونتوهمها عواء .. اعيد عيني الى الخارج وكريستين ما تزال ترقص ، تقطع قيوداً لامرئية غن اعضاء جسدها ، والرجال الاربعة يقفزون حولها ويدورون ... انطونيو ، ميناتور ، جاك ، وشارل . دوماً كان المشهد يدهشني . اولئك الاثرياء الساقطون في البطر والتعاسة الخاصة والوحشة يدهشونني !... دوماً احسها في كل ما تفعله ، ترقص هكذا وحيدة ، تصرخ رقصاً بلغة غامضة معذبة ، وهم حولها يحاولون فهم ماذا تريد .. احدهم زوجها ولا اذكر بالضبط ان كان هو شارل او ميناتور ولا يبدو ان الامر يهمها أو يهم أحداً آخر !.. اذ لا يمكن على الاطلاق تلخيصها بكلمة مدام (فلان) .. انها شيء آخر اشد غربة ومرارة من ارامل العالم كلهن .. الرجال الاربعة يدورون حولها دون لقاء او ارتحال .. تلك الشبكة العجيبة ، لا ادري كيف وجدت نفسي اكاد استحيل خيطاً من خيوطها الحائرة ... ميناتور العملاق اليوناني الصامت بشعره الحيواني الكثيف الاسود وعينيه الضيقتين المضيئتين ، وشارل الكاتب الفرنسي الشهير المجنون بالصيد ، وبها ، وانطونيو راقص الفلامنكو الاسباني ونجم الفرقة التي جاءت تفتتح الكازينو الكبير ، الذي شيدته كريستين في هذه البقعة النائية من الشاطىء الافريقي الحار .

لماذا انا هنا ؟ كيف وصلت الى هنا ؟.. اين كنت قبل ان اجد نفسي فجأة في هذه الدار العجيبة ، دار البخور والضباب ورؤوس الحيوانات المعلقة على الجدران .. والشاطىء المرمي تحت شرفة القصب ، والكازينو الابيض المشيد فوق التلة المواجهة ؟

اين كنت قبل ذلك ؟..

هل كنت ؟ (هل كنت) على الاطلاق ؟..

لم يكن يهمني ان اذكر بل كان يهمني أن لا أذكر ! .. كانت الشمس التي تلسع جسدي العاري طوال النهار تكفيني ، والموسيقى المجنونة ، والليل ، والشبكة البشرية التي ارقب تحركاتها ليلاً تكفيني ...

من انا ؟ لماذا انا هنا ؟... اسئلة لم ترد على خاطري الا في فجر ذلك اليوم ، حين عاد زوجها شارل من الصيد ، وايقظ عواء ذئبه الصغير اهل الدار وضيوفها — حتى الآن لا اعرف بالضبط من الضيوف ومن اصحاب الدار ، وكل ما اعرفه هو انها دار كريستين الغامضة .

(استيقظت وقد خيل إلي أن شخصاً ما يخاطبني ... ولكني لم أسمع سوى عواء طويل إنساني ممطوط ، وغمرني إحساس عجيب بأنني أسمع لغة سبق وتعلمتها في طفولتي ثم نسيتها .. كانت نبراتها مألوفة لدي ، حتى جوها العام استطعت أن أفهمه لكنني عجزت عن تفكيك تفاصيل كلمات العواء ...

جلست في فراشي وكانت الغرفة ما تزال غارقة في الظلمة .. ثم سمعت صوت أنطونيو يقول شيئاً ما بالاسبانية التي لا أفهم منها حرفاً واحداً والتي لا يجيد سواها .. وشارل يجيب بالاسبانية أيضاً وبصوت كله حماس ، وفهمت من لهجته الطفولية الفخور أنه يروي حكاية الصيد الأخيرة .. كان العواء ما يزال يعلو من وقت إلى آخر ، فنهضت إلى الباب افتحه قليلاً وأقف خلفه وأطل برأسي فقط ... وفي الممشى كانت كريستين تقف أمام باب غرفة نومها وتتأمل شارل بنظرة ساخرة جعلتني أتأكد من أنه هو زوجها ... وميناتور في الممشى بقامته الأسطورية الفارعة وشعره الكث ، صامت كعادته... وتذكرت في هذه اللحظة بالذات أنني لم أسمعه قط يتحدث أو يقول شيئاً ..

ترى ماذا يشده إلى هذه الشبكة العجيبة من الأشخاص المشدودين بعضهم إلى بعض بقوة تنافرهم ؟ لماذا هو أحد أفراد حلقة كريستين العجيبة التي تنعقد كل ليلة بعد أن يذهب الجميع ؟ إنه صامت وغير متملق كقلعة وهذا يجذبني إليه .

وكان شارل يقف في الممشى في ثياب الصيد ويقبض بقوة على سلسلة قصيرة تحيط بعنق ذئب صغير يعوي أنيناً إنسانياً مبحوحاً ، وعبثاً يخمش سجادة الممشى بأظافره الصغيرة ، وعبثاً يتملص ويحاول الهرب ...

لم تقل كريستين شيئاً . ظلت تنظر إلى زوجها بتلك السخرية الغامضة ...

وكان له وجه نموذجي لكاتب شهير غربي ناجح ، فعيناه تومضان من وقت إلى آخر بذلك الوميض الطفولي الوقاد الحائر والعابث والمحب للحياة بدون تعقيد ... وكان من المستحيل أن يدور بينهما أي حوار ... ميناتور لم أسمعه قط ينطق ولا أدري لو تحدث فبأية لغة وإن كنت واثقة من أنه سوف يتحدث بلغة هوميروس نفسها .. وشارل الأديب الكبير لم أسمعه قط قادراً على ممارسة أي حوار منطقي ومفهوم مع كريستين .. وأنا لا أستطيع التحدث بالفرنسية بعد استيقاظي من النوم مباشرة لأنني لا أتقنها واحتاج إلى كثير من التركيز قبل أن أفهم أو أجيب .

وفتح باب آخر مواجه لباب غرفتي وخرج جاك في بيجامة حريرية ، وسأل بسرعة وبساطة بالفرنسية : آه ، يا إلهي ، صيد جديد ... عظيم ياشارل.. عظيم جداً ... وبدون أي خدش في جسده ! هذا إنجاز هام . سوف نتسلى الليلة ...

وابتسم لكريستين وهو ينحني ويضيف : ضيف جديد لجدرانك سيدتي الكونتيسة .. وكان لكلمة كونتيسة نغمة عبارة «جارية ثمينة» ! وجهها لم يبسم لتعليقه كعادتها وإنما ظل جامداً .. وعيناها انحدرتا عن وجه زوجها

وانطفأت فيهما السخرية ، واستقرتا فوق الذئب الصغير المقيد ولاح فيهما حزن غامض دفين وذابل .. همست بصوت خشن يشبه الفحيح : دعه يهرب .. دعه يذهب .. وكأنما شقت كلماتها كوة ما في سرداب تنفذ الريح خلاله ، فقد تحرك القنديل النحاسي ذو الكوى الملونة المعلق في السقف ، وبدأت ظلال شاحبة زرقاء خضراء حمراء ترقص بقعاً متلاحقة على وجهها... دعه يذهب ...

صرخ شارل بقسوة مفاجئة لم يخطر لي قط أنه قادر عليها ، وبصلابة يتقن اخفاءها عادة : لا . إنه ذئبي ، أنا اصطدته ، وسوف احتفظ به وافعل به ما أشاء . إنه ملكي .

واستحال عواء الذئب إلى ما يشبه الصراخ حين هجم عليه جاك ثملاً ضاحكاً معابثاً وأمسك به من قائمتيه الخلفيتين بقوة رجل يغتصب مجهولة ، ورفعه قليلا عن الأرض ثم صرخ بانتصار : إنها ذئبة لا ذئب..لقد اصطدت ذئبة يا شارل. ذئبة ...

تبدل مناخ الرجال في الرواق ... اشتعلت عيونهم بدعابة حمراء غير بريئة ... انتفخ شارل أوداجاً وعضلات مثل جندي متأهب لحرب مقدسة!. ذئبة ...

ارتعشوا لعظمة المهمة التي قام بها شارل ، ولقدرته على الانتقاء وحظه في الاصطفاء ، وتخيلت أنهم سيبدأون بالتصفيق والتصفير ويراقصون الذئبة أمامنا واحداً بعد الآخر ...

تعوي الذئبة : إنهم « ذكور » .

أردد معها : إنهم ذكور ...

تعوي الذئبة : ذكور حمقى تحدد ذكورتهم زاويتهم للرؤية ...

أردد معها : تحدد زاويتهم للرؤية والرؤيا ...

قال شارل فخوراً وهو يحدق في زوجته كريستين : إذن اصطدت ذئبة أخرى ... أقسم أن احتفظ بها هذه المرة داخل قفص مذهب القضبان ، ولن أسمح لأي ذكر بالاقتراب من قفصها وإلا قتلتها وقتلته ... لقد تعلمت كيف يفترض أن أتعامل مع أية ذئبة جديدة ... غداً سأستحضر العمال لصنع قفص ذهبي لها ولو أنفقت كل ما كنت قد رصدته لشراء معطف فراء جديد لك (مخاطباً كريستين) ..

وشد ميناتور عضلاته ، وخيل إلي أنه سوف ينتزع الذئبةبالقوة من شارل ، أو سيخفي وجه كريستين في صدره . لكنه ظل واقفاً جامداً .

في هذه اللحظة بالذات ، رفعت الذئبة وجهها والتفتت إلي ، والتقت نظراتنا..كانت عيناهابركتي غربة وحزن دامع..نظرت إلي كأنها تعرفني منذ زمن طويل وأحسستها تود أن تذكرني بأشياء كثيرة مشتركة طالما قمنا بها معاً كتوأمين ، وعوت بذلك الصوت الإنساني المتعب الحائر ، وسمعت داخل حنجرتي عواء مماثلاً لكنني ظللت صامتة ولم أقل لها شيئاً ولم أتحرك رغم أن شارل شدها بوحشية وخرج بها ...

غابت كريستين خلف البساط الذي يغطي باب غرفتها ولحق بها ميناتور

وطوال تلك الليلة ، كنت أسمع الذئبة الصغيرة تحتج بمرارة لأن شارل يقيدها إلى جدار ما في الحديقة الخلفية المعتمة ريثما يصنع قفصها الذهبي.

تلك الليلة لم أنم ، ولم تنم الذئبة ، وربما لم ينم أحد في المكان ... كأن صوتها هو بطريقة ما صوتنا جميعاً .

ظللت في غرفتي مذهولة أنصت ، وعند النافذة كان الفجر يشتعل في الشاطىء التونسي الساحر وهجاً فضياً طفلاً ... وأحسست للمرة الأولى منذ وصولي إلى تونس بحاجة إلى أن أكف عن (مراقبة ما يدور) لأحيا أنا من جديد .. للمرة الأولى وجدتني أتمرد على تلك الضبابة الرمادية التي تملأ رأسي منذ أيام ، منذ جئت إلى هنا .

كأني لا أستطيع أن أذكر .. أو أنني أرفض أن أذكر .. أما الآن والذئبة في القفص المذهب المظلم وحيدة وصوتها ينبعث خافتاً حزيناً أفهم جيداً ما يعنيه دون أن أقدر على سكب معناه وكهاربه في الكلمات المألوفة . الآن أحسّني أرافق صوتها المتفرد الموحش بصوت يولد داخل أحشائي وينتهي عند حنجرتي أيضاً ...

ليلتها ، خيل إلي أن رؤوس الحيوانات المحنطة المعلقة على الجدران ترافقها كلها في كورس من عواء النواح العتيق .. ثم أهل الدار ، كريستين بوجهها العجيب الساحر وعينيها الغائمتين النائيتين دائماً ... وميناتور بصوته الذي لم أسمعه قط .. وأنطونيو ، وشارل أيضاً ، ربما كان يدفن رأسه تحت كوم من مؤلفاته ويعوي غضباً أو شهوة أو حزناً بأحاسيس لم يقوَ قط على إيصالها لأي إنسان آخر رغم فصاحته وطاعة عساكر الأبجدية له ..

وجاك ، حتى جاك بوجهه الضاحك أبداً المكشوف أبداً ، ربما هو الآن يخفي وجهه المحبوب بحطام مرآته ويعوي من الأكذوبة التي هي « نفسه » والتي أقنع بها الناس جميعاً ما عداه،وحين لا يجد ما يقوله يعوي...

أما أنا ، فماذا تصرخ أعماقي ؟ ... ماذا بي ؟ ...

لم أدر . في تلك اللحظة كانت أكداس الضباب ما تزال تهوم داخل جمجمتي ولم أدر فيما إذا كنت حقاً قد فقدت ذاكرتي نهائياً أو أنني تخليت عنها

وأهملتها، ولم أدرِ، فيما إذا كنت نهائياً، لا أحد سوى تلك التي ولدت منذ أيام، هنا على الشاطىء تسبح طوال النهار مع الأسماك وتسمع أحياناً كلمات توحي بأنها ضيفة صاحبة الدار كريستين التي فضلتها على جميع مدعويها، ونقلتها إلى دارها الخاصة لأنها أحبت جنونها وصمتها ، ولأنها تكبدت مشاق رحلة أضاعت خلالها حقيبة ثيابها في الترانزيت بمطار روما ووصلت إلى تونس كأية متسولة لا تملك حتى ذاكرتها) !..

لماذا انا هنا ؟.. لماذا انا هنا ؟.. لماذا استيقظت هذه الاسئلة المهجورة في نفسي ، منذ جاءوا بهذه الذئبة وقيدوها الى جدران قفصها الذهبي في الطرف الآخر من الدار المقابل لغرفتي كصورتي في مرآة بالحديقة .

قبل ان اسمع نداءها ، قبل ان تخاطبني بتلك اللغة العجيبة التي تضرب في اعماقي اوتاراً مهملة ، لم يكن يعنيني من انا وما انا ...

لم اكن سعيدة تماماً ولا تعيسة تماماً ... كنت مشدوهة احياناً ومذهولة ايضاً من وقت الى آخر .. اتمتع بمراقبة الاشياء دون ان احس انني احد اطراف اللعبة ... (تعبت من دوري في الماضي كطرف أساسي في اللعبة ، آه كم تعبت طوال عمري) .

الآن ، اجدني ، رغم الموسيقى المعولة ، رغم الخليط العجيب من الضيوف ، رغم بقية افيونات التخدير من رائحة خمرة ممزوجة بالياسمين ، وهبات الريح الحارة المثيرة ، وايدي الرجال القوية التي تمتد نحو وجهي من وقت لآخر لتشعل لفافتي ، الآن احسني باصرار حائر صادق اتساءل : لماذا انا هنا ... لماذا انا هنا ... ما انا ؟... وباصرار صادق اتمنى لو لا اتذكر !

لا استطيع ان أعي اي شيء سوى ان الذئبة وحيدة وسجينة في القفص

الذهبي الجميل ، قفص ذهبي رائع الصنع لم ارَ لجماله مثيلاً وانه صار للـدار ومن فيها طعم خاص جديد ومفهوم جديد مرير لا ادري بالضبط ما هو منذ تفجر فيها عواؤها ..

يقترب ميناتور مني ، اسير ، يلحق بي ، التصق بأحد الاعمدة وأتأمله ، ولعل في وجهي تعبيراً ودياً غريباً ، ربما لانني مثله لم اتحدث قط عن نفسي ، وان كنت لم اسمعه قط يتحدث عن نفسه او عن سواه .. ابتسم له ، اتمنى ان اقول له شيئاً ، ان اسأله ان كان يسمع عواء الذئبة ، ان كان يعني له ذلك شيئاً ... أحدق في حزنه بحرارة وانا افتح فمي بالكلمات . احس بيد كريستين على ساعدي ، تقول : تعالي وساعديني في جلب مزيد من الشراب ... ألحق بها وانا ادمدم شبه معتذرة دون ان ادري لماذا (كأنني خشيت غيرتها على احد عشاقها) : كنت اتبادل حديثاً عادياً مع ميناتور حول دارك العجيبة .. تجيب بلا مبالاة غريبة : ميناتور اخرس ! ... هل يصدمك ذلك ؟ ولماذا يصدمك ؟ كل الناس بُكْمٌ وصمٌ . انطونيو مثلاً اخرس في عالمك لانك لا تفهمين لغته ولو فهمت الاسبانية لاحسست ربما بالمزيد من عدم التفاهم معه ! ! .. اقول لها : هذا صحيح . جاك مثلاً اخرس في عالمي رغم فهمي للفرنسية ولذا اجيبه بالعربية حول اشياء اخرى لم يسأل عنها . تكرر ساخرة : ولكن ميناتور اخرس بالولادة ! .

كريستين تكرر ونحن نخرج بالشراب إلى الردهة المكشوفة : ميناتور اخرس ، ولكنني احياناً اتحاور معه ... من وقت الى آخر اكف عن ان اكون وحيدة ...

على سرج كبير تجلس وميناتور يقعي على الوسائد والجلود المفروشة قرب قدميها ... يدها تغرق في شعر رأسه الكث الحيواني بينما يغمض عينيه بطفولة بالغة الرقة ويبدو في ملامحه أنه يستمع الى انشودة نائية وانه

يرددها معها ولم يعد اخرس . ولا ادري لماذا تذكرت في هذه اللحظة بالذات ان كريستين بلا اطفال وانها ايضاً تحب الوحوش الاليفة .

الذئبة الصغيرة تعوي في العتمة ، واشعر ان كريستين وميناتور في هذه اللحظة لا يرددان صدى صرخاتها ولا يسمعانها .

(إني بحاجة إلى أن أحدث إنساناً ما بطريقة ما.. خائفة ووحيدة . صوت الذئبة الذي أسمعني أردده في حنجرتي أعجز عن إسكاته. إني أعوي بصمت بارد) . يبتسم وجه جاك .. اقترب منه كما تقترب القطط الغريبة بعضها من بعض في شارع صامت بارد ليلة شتاء مطير ...

اترك رأسي يسقط على ركبته .. يده تتحسس عنقي برقة حانية ، تراه يستطيع ان يسمع بأنامله اختناق العواء الطويل الحزين داخل حنجرتي .. العواء يستحيل كلمات وانا اقولها له : اني وحيدة ... قلتها بالفرنسية ، اني وحيدة وحيدة وحيدة ...

(نظر إلي أحمد بعينين حاقدتين. كنت قد تركت رأسي يسقط على ركبته وأنا أهمس : إنني وحيدة ... وحيدة . كنت أعرف أنه يموت شوقاً إلى تقبيلي ؟ ولكنه غاضب أيضاً لأنني تركته يقبلني...

لما اقترب مني أحسست برغبة في أن ألتقي به بطريقة ما .. في أن أكف عن أن أكون وحيدة ، أن امتزج به ، أن أكثف حوارنا ، أن أعمق لقاءنا.. كنت أحبه ببراءة ، وبلا تخطيط ...

لذا ، لما شدني إلى صدره، لم أحس بأية رغبة في افتعال التمنع ، كنت أود ذلك أكثر من أي شيء آخر في العالم .. كنت طرفاً مسؤولاً عما يدور ولم أكن مجرد دمية ماهرة واعية لأصول البيع والشراء ، تتمنع افتعالاً وتعتبر نفسها (مفعولا به) يمنح مقابل شروط ومغانم أخرى اجتماعية ... استحلت قطاً صغيراً يتشرد في عنقه ، يقبل ويعض ويموء ويحاول أن ينسل حتى تحت الجلد واللحم والاعصاب ...

قال والنشوة تخنقه : لماذا أنت رخيصة هكذا ؟.. كيف أثق بك ؟..

أجبت : لست رخيصة ، ولست شرقية تتاجر بمظهر شرقيتها .. إني أمنح حينما أكون صادقة مع نفسي وأنا أمنح...

قال : ماذا يضمن لي إخلاصك ...

أجبت : احترامي لذاتي . أنا معك دونما ضمانات غير كياني الذاتي وصدقي .. إن سواك من الرجال غير موجودين في عالمي كذكور كي أشتهيهم ما دمت « ذكري » .. لا أستطيع أن أخونك فالجنس لدي امتداد للحب .. أسلوب آخر للحوار..لا أعرف الجنس المعزول . ولا أستطيع استيعابه.. وإذا اشتهيت سواك فهذا معناه أننا انتهينا منذ زمن طويل وأنك لم تعد في عالمي ، ولم أعد مسؤولة أمامك ... وفي هذه الحالة أخبرك بذلك سلفاً ...

– ومن يضمن لي ذلك ؟...

– صدقي .. الشرقية المزيفة تضمن لك حفظ المظاهر ولكنها لا تضمن لك الصدق ...

– ومن يضمن صدقك ؟...

– في العلاقات الإنسانية ليست هنالك ضمانات من طرف واحد .. هنالك علاقة حية ديناميكية متنامية شرطها الأساسي صدقك أنت أيضاً .. صدقك الحقيقي ، لا المظهر الاجتماعي السليم لسلوك قد يخفي لحظات من الزيف..

– ولكنني رجل ، وأنت أنثى ...

– ولماذا يكون الزيف حقاً يطالب به الرجل الشرقي ؟... وميزة يجب أن يمارسها . أنت الشرقي وأنا مجرد إنسانة صادقة .

وأحسست في تلك اللحظة أن الحوار بيننا مات . إن الكلمات في عالمي

تعني شيئاً آخر يختلف عما تعنيه نفسها في عالمه .. وسمعته يقول شيئاً ولم يعد لذلك أي صدى أو معنى في لغتي أنا .. لثانية، تحولت إلى خرساء.. ثم سمعتني أختنق في حنجرتي أنيناً يشبه عواء ذئبة صغيرة وحيدة في صحراء شاسعة ، دون أن تفهم مرة عواء قطعان الذئاب العابرة أو تقوى على الانضمام إليها ..

اقترب مني وضمني إليه .. أدهشني ذلك . كنت أحسني نائية وظننت أنه هو أيضاً مخلص للغته ، وأنه أيضاً يشعر أنه ناء ... شدني واقترب بشفتيه من وجهي ، ظللت أحدق فيه بعينين بلهاوين وأرقبه بلا إحساس وقد انطفأ كل نبض في روحي .. وأطفأ النور ، وشدني إليه ... هذه المرة بدأت أعي تفاصيل جسده ، إنه مجرد ساقين ، صدر مكسو بالشعر ، شفتان لزجتان ، أنف ، يدان ذراعان، وغمرني اشمئزاز عجيب ، حاولت التملص . في اللحظات السابقة لم يكن هنالك لحم ودم وجلد وجسد يحول بيننا ، ويحولنا حيوانين في ظلمة شارع خلفي ، صرخت لا .. دعني .. أحسست بأنفاسه تتسارع ، وبرغبته في امتلاكي تتأجج لمجرد أنني لا أريد .. إذن هو الآن صياد ، هو الآن مغتصب ، وذلك وحده يمكن أن يمتعه !

صرخت : « دعني .. رغم ثقافتك ورقتك ، مازال الشرقي فيك يحب عملية صيد الغاب في الحب .. إذن ليس هنالك لقاء حقيقي مادمت أنت يا أنبل الرجال مجرد صياد آخر .. ذئب وحيد آخر »

وقاومت رغبتي في غرس أظافري ، في الضرب ، في ضرب أعمى مجنون.. أوجعتني يده القوية ، فالتهبت غضباً متألماً حاقداً .. وخشيت أن أعوي ثانية كذئب صغير وبصوت مسموع وحاولت أن أذكر نفسي أنني مع رجل أحبه ، مع رجل أحبه ، مع رجل ما أحببت سواه ، وصرخت ملتاعة ! أرجوك .. أضيء النور .. دعني أرى وجهك ... دعني أرى وجهك .. أحس أن غريباً يغتصبني ...

أضاء النور وهو يضحك منتصراً : أيتها الشرقية .. هكذا أريدك !!.

وبكيت لأنني لم أستطع أن أفهم لماذا يجب أن تكون شرقيتي منافية لإنسانيتي ولماذا أنا مرفوضة وعاهرة إلا في لحظات الرفض السلبية من قِبَلي ؟. لماذا لا أستطيع أن أكون شرقية وأن أمنح في الوقت نفسه ، إن كنت في منحي هذا أمارس إنسانيتي واعية مسؤولة وكاملة ؟. لماذا يرفضون أن يفهموا أنني أمنح وأنا أحافظ على كياني كامرأة مستقلة ولا أريد أن أثبت لأحد عذريتي أو تبعيتي ولا شيء سوى أن أحب كموقف متكافىء بين إنسانين متكافئين ضد الوحـــدة ؟ وماذا لو كنت لعشرات الرجال قبله ، (ما دمت قد استحميت بعد ذلك!). وفي هذه اللحظة أحبه هو ، وبصدق!!...من قال له أن الرجل وحده تصقل التجارب قدرته على الحب ؟ لماذا لا يفهم أن المرأة هي أيضاً مثله؟

قلت له بصوت حاد هامس كما أفعل دائماً حينما أنوي الصراخ :

اسمع أيها الرجل الذي أحب حقاً ، الحب نغمة من نغمات حياتي ، كما هو بالنسبة إليك . لكنني أعشق أشياء كثيرة أخرى إلىجانبك ! أعشق عملي . حريتي . صدقي .مثلك تمامــاً . وأعشقك ، لكنك لن تحيلـــني إلى امرأة ضعيفة متعطشة للثأر . قد تسبب لي ألماً عظيماً لكنك لن تدمرني ولن تدمر طاقتي على الحب . أرفض أن تمتلكني وأن أمتلكك .. وأرفض أن ...قاطعني صارخاً : أحبك .. وأكرهك .. أكرهك ..)

يتعالى الضجيج في الداخل .. لا ريب في ان ضيفــة مــا ترقص ، ولكل منهن اسلوب خاص متفرد في مضاجعة النغم ، ثم في الابحار الى صحارى يرتسم رعبها في وجهها في لحظات الرقص الاخيرة ثم تلهث بمرارة بريئة من لعنة اللحم ،والجلد المضمخ بالشمس والعطر والحمرة، تلهث بوجه صاف غسله العرق ، وتبدو تمثالا منحوتا في صخرة طهرتها رياح عاصفة شرسة الامطار ، وغسلتها حتى جذورها في عروق الارض

تحت عشرات من طبقات القبور المتراكمة على مر الاجيال .. تلهث كما تصفر الذئاب المتعبة الوحيدة .. كما تعوي تلك الذئبة الصغيرة المقيدة في الحديقة الخلفية .. اقترب وجاك منهم .. والجو ما زال مرحاً والضيوف في ذروة نشوتهم وشربهم .. اي خليط عجيب من النساء والرجال ! أحسهم جميعاً يرتدون الاقنعة على وجوههم ، اما الاقنعة الحديدية والخشبية المبعثرة كديكور على الجدران بين الرؤوس المحنطة فأحسها تنتهز فرصة انشغال الجمع عنها تماماً ، فتحيا حياتها الحقيقية ، وتحرك ملامحها ، يرتسم في عيونها المفقوءة حزن غامض عتيق ، وابتساماتها ساخرة ومريرة ، والضجيج يعلو ،كلهم يصفق ، دائرة من البدائيين في ثيابهم الغريبة ، وضيفة صغيرة ترقص ببراءة من لم يكتشف بعد الاظافر المدببة في الايدي التي تصفق ، والانياب خلف الشفاه التي تضحك وتدخن السيجارات وتتقن عشرات اللغات ، عشرات من مظاهر الحوار .. ولا حوار .. لماذا انا هنا ؟.. لماذا انا هنا ؟ ابحث عن جاك الى جانبي ، وأجده قد اختفى خلف احد الاعمدة يبحث عن شفتي حسناء في ظهرها العاري ، كأنه يحس ان الظهر العاري ايضاً يمكن ان يتحول الى حقل شفاه جائعة .. ارقبه بحياد صادق .. انه حيوان رشيق وجميل ، وجوعه النهم يحمل شيئاً من المهابة ، واستسلامها له يحمل نوعاً من صدق خاص .. ان عضلات ظهرها ترتعد وترتجف لوقع شفاهه ، ان مسامها تنطق ، تهمس ،تسكب اللهفة وقطرات من العرق التي تلتمع تحت نور المصابيح الملونة لآلىء زرقاء سوداء خضراء كعيون القطط الوحشية الشريرة .. اتذكر جسدي واللعنة التي تسكنه ، واحس بعشرات الشفاه تنفتح فوق جلدي على ظهري وساعدي ورقبتي وتنبض بجوع مشتاق متحدٍّ .. كان ذلك جميلاً وبهيجاً ايام كنت عاشقة ومتماسكة .. وقبل ان يحل الزلزال فلعنة حقد الجسد .. آه الزلزال ...

(الزلزال في الأرض الصخرية ...

هكذا كان حبي له ... كنت أرضاً شرسة ، ولصخوري جذورها التي تزداد إمعاناً في التسلل إلى باطن الأرض كشجرة ، وعبر عملي الصحفي وانتمائي الحزبي ، عبر حبي الصادق لكل ما هو جميل وأصيل في هذا العالم حولي كونت شرنقة من العلاقات البهيجة البهية المليئة بالكفاح والأمل رغم ترصد الجواسيس لنشاطنا ... وكان حبي شرساً وعنيفاً ككفاحي ، واجتاحني أحمد كزلزال في أرض صخرية صلبة ...

لم أكن أدري أن أحمد سيلعب مجاناً دور « كلب السلطة الاجتماعية » الأول إلا ليلة صرخ بي : أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

– في الحلقة الحزبية مع راضي ورفيق وبشير . وهذه الساعة من الليل ليست متأخرة بالنسبة إليّ لأنها لا تتعارض مع توقيت عملي غداً صباحاً !

صرخ بي : ماذا كنت تقولين لو أنني كنت قد قضيت هذا الوقت مع روزالين وانطوانيت وفتحية في ملهى « الكيت كات » ؟

– كنت أقول أنك استمتعت على طريقتك !

– وأنتِ إذن كنت تستمتعين مع راضي ورفيق وبشير . أيتها الخائنة الزانية . لن أسمح لك بلقاء رجال سواي تحت أي ستار .

همست مجنونة بهدوء مرعب . بصوت يشبه فحيح أفعى داهموا عشها ودمروا بيضها : اسمع يا أحمد . إن حبك يعمي عقلي المصر على أن يمارس كيانه . إنني أعشقك ، وسأتخلى لأجلك عن رفاقي ولكن تذكر : هذا يعني أن علاقتنا نوع من « الهوى » لا « الحب » البناء . هذا عشق يدمر حريتي وكياني وعليّ أن أهجرك وسأفعل . إنك مصر على خسارتي .

صرخ فرحاً وقد سمع ما رغب في سماعه فقط : لن تري (الرفاق) بعد الآن . كم أنا سعيد .

ضمني إليه.إلى جسده الحار الثري الخصب الجبار ، جسده الذي أعشق وشعرت بالذل وأنا أتلقى بركته الحارة في أحشائي وحين بردت عند الفجر أقسمت أن أنجو من فخ جسده الشهي ، وكنت مثل سجين مصر على قرض قيوده) ...

آه ذلك الزمن الجميل الحزين ...

آه من انفجارات بركان الذاكرة . اني اتذكر . لم يعد بوسعي ان اهرب وانسى ما دامت حتى الذئاب تتابع صرخة الاحتجاج ... آه ها أنا أتذكر واتذكر دونما رحمة بنفسي ولا شفقة ... آه كم اطلقت من صرخات الاحتجاج مثل هذه الذئبة .

(كنت قد عملت منذ الصباح المبكر في المجلة كي أعود إليه وأتفرغ لذلك الهوى الجارف الذي يجتاحني حين يلمسني . عدت إليه ظهراً منهكة وكان هو قد استيقظ من نومه تلتو — وكان بوسعه أن يفعل ذلك بصفته رئيساً لتحرير المجلة التي أعمل فيها ! — وقال لي : عندي مفاجأة لك . وغادر البيت.

دخلت إلى الحمام واغتسلت وصليت للإله لأنه منحنا الماء والصابون والدفء ووهم العودة إلى الرحم والحنان والإنزلاق المعطر وخرجت وأنا أنتظره بمسام متفتحة لاستقبال حبه، فعاد حاملاً كوماً من « الملوخية » وحزمة من «الكزبراء» و « الثوم» وقال : « لقد دعوت إلى العشاء بعض الصحفيين العراقيين الضيوف المعجبين بكتابتك !!... وداعاً . أنا ذاهب إلى المجلة وسأعود معهم في الثامنة مساء . أرجو أن يكون كل شيء جاهزاً . قبلة سريعة على خدي كأي

زوج متخم بالمسؤوليات يتعطف على (حرمه) . واختفى.

شعرت بالغضب يجتاحني موجات من الألم . لم أغضب لأن في دعوتهم نوع من الإعلان عن مساكنتي له ونحن ما نزال في مرحلة الخطبة .

غضبت لأنه مصر على أن ألعب دور الأنثى كما يتخيله . هو يذهب إلى عمله . أنا أذهب إلى مطبخه . وهو أيضاً مصر على إقناع الزملاء بهذه الصورة: ها هي تطبخ لنا ... أليس طبخها خيراً من كتابتها ..

قالها مساء على العشاء ، وأيده أحدهم بحماس بينما نظر إليه آخرون بشفقة وحدثوني بتعاطف رفاقي إنساني ...

كنت دوماً أكره المسرحيات العاطفية أمام (المتفرجين) واحتفظ بها لما بعد ...

وبعد انصرافهم قلت له بهدوء : لا تكرر هذه المهزلة كي لا تفقدني . من واجبك في المرة القادمة أن تستفسر عن مواعيد عملي ورغبتي في الطبخ أو لا ، ورغبتي في لقاء فلان أو لا قبل أن تجرؤ وتحدد لي مخططي الحياتي دونما استشارة أو استئذان . قال مضاحكاً : « لماذا أستشيرك ؟ هذا عملك الأساسي . ولماذا العمل في الصحافة ما دمت قد وجدت عريساً « أحمق » هو أنا !!... وتقدم مني ليضمني إليه ويخدرني . هربت . قلت له أنه إذا كان الزواج يعني هذا الإذلال السري فإنني أنسحب من هذا المشروع ... تذكرت كيف كان يمتدح طبخي كلما حاول أحد الضيوف أن يحاورني عن كتابتي فازداد غضبي التهاباً ...

أصابته العدوى . صرخ بي : إن أحداً لن يتزوج منك ... سينتهي بك الأمر إلى « عانس » !.. وصرخت به : هل تظن أنك تهددني بمصير « المرأة

العانس » ؟ أنا امرأة عاملة . امرأة حية . سأصير ببساطة إذا لم أتزوج ... « امرأة عازبة » وأنت الذي ستتحول إلى رجل عانس . أنا امرأة تعمل . أحب عملي وليس رعباً أن أمنح حياتي لعمل أحب أن أؤديه ويقين يحتويني .. ذلك هو الحب ... وتحول صوتي إلى همس حاقد :

أنت «عانس» يا أحمد لأنك عاجز عن الحب بمعنى قبول إنسانية المحبوب . ستظل رجلاً عانساً حتى ولو تزوجت من أربع نساء وعاشرت ما ملكت أيمانك . وداعاً ، ولو كنت قبلت بارتداء خاتمك لرميته الآن فوق هذه الصحون الوسخة وبقايا الأكل ...

أما هو المصر على التقاليد وعلى ارتداء خاتم الخطبة ، فقد حاول خلعه من يـــده وفشل . كان وزنه قـــد ازداد في الآونة الأخيرة لكثرة ما التهم من طبخي بشراهة . كان يأكل ذلي ... ولكنني كنت أعرف أنه لو نجح في خلع الخاتم لرمى به في وجهي !

حاول أن يبدو هادئاً . سألني برقة مصطنعة : ما حاجتك إلى العمل ؟ تعرفين أنني ثري ، لكنني رجل ومن الطبيعي أن أعمل !.. أما أنت ...

قاطعته : لا تستطيع أن تفهمني لأنك لا تعرف قيمة العمل . العمل لديك مجرد ديكور كالشهادة الجامعية للفتاة الثرية ... العمل لديك مجرد تقليد اجتماعي. أنت مثل رب عمل والدي. تكفينا كارثة واحدة في البيت من هذا النوع).

يبدو انني ما زلت اتأمل جاك وانثاه — دون ان اراهما — ، لانه شدها من يدها وخرج بها الى الحديقة بعيداً عن نظراتي .. والصغيرة ما تـــزال ترقص ، والحلقة حولها تدور راقصة ضاحكة متلاطمة ، والشفاه احسها ما تزال مفتوحة على جلد ظهري العاري ، والذئبة الصغيرة اسمعها تعوي وحيدة في الحديقة ، واحس بآلاف الشفاه التي نبتت في جسدي تعوي معها وانصت بلا استنكار او هرب ، احاول ان ادرك ماذا اريد بالضبط ...

في هذه اللحظة بالذات يتجه إليّ انطوني ، رشيقاً كالفهد ، كأجمل حيوانات الغاب ، وسيماً قوياً وبريء الصراحة .. يقترب مني واسمع آلاف الصرخات تمتزج مع عواء الرؤوس المقطعة المعلقة على الجدران ، وأحس اني بعد لحظات سأكون رأساً معلقاً على احد جدران هذه الدار العجيبة ..

قررت : وهذه المرة ايضاً لن اهرب .. لن اهرب ... واذا كانت تلك الذئبة الصغيرة المقيدة في قفصها الذهبي المترف تنوح لمجرد انهاتنادي ذكراً ما ، واذا كان اي رجل يستطيع اسكات هذه الشفاه المفتوحة على لحمي منتحبة هاذية بلغتها ، واذا كانت لغتها هي نفسها لغة مسام جسد اي رجل ... اي رجل .. ، فلن اهرب .. لن اهرب بعد اليوم .. ولن اخجل .. وسأقول لهم انني قطة شاردة ، مجرد قطة شاردة جديدة للرجال القطط الشاردين الذين يخلعون رؤوسهم مع ثيابهم . قطة تساويهم في صدقهم الذي احتكروه ، وحرموا على سواهم ممارسته ، واسموه (عهراً) اذا مارسته امرأة مثلي . اني اعمل مثلهم . اموت جوعاً اذا لم اعمل مثلهم . فقيرة مثلهم . افكر مثلهم . اطالب بحقي في الخطأ مثلهم . واطالب في حقي باللذة غير المسؤولة مثلهم !! لن يخيفوني . لن يقمعوا غضبي . اني وحيدة مثلهم افتش عن حل !!.. اترك لانطونيو يدي واتركه يشدني الى عتمة الحديقة ومجاهلها .

ولم نكد نصل الى أجمة كثيفة ، حتى وجدنا انفسنا نلعب دور المتلصص (بدلاً من دور العشاق !) . سمعنا فجأة صوت كريستين يقول متمتماً كما لو كان في حلم : هنالك شيء آخر يجوع اليه الجميع النساء والرجال .. شيء يتجاوز عالم الجنس والثراء والجاه والشهرة .. شيء صغير جداً لكنه يكسب هذه الاشياء كلها لونها الانساني . يسألها صوت لم اتبين صاحبه ضاحكاً ببذاءة : وما هو هـــذا الشيء الصغير؟.. اريني اياه !... وهربت

من مجاهل الحديقة ومن انطونيو وجلست في مكان شبه منعزل ورغم ضجيج الرقص لم اعد اسمع سوى صوت الذئبة .

بعد قليل لحقت بي كريستين وجلست صامتة . وفي عينيها تتلاحق بسرعة اضواء بنفسجية تشتعل وتنطفيء ، ثم لا يبقى فيهما سوى غيمة بنفسجية داكنة تظلم ببطء حتى تستحيل سوداء داكنة داكنة .. ويصبح وجهها جامداً ، ولا ادري لماذا يخيل الي ان لها وجه جثة جميلة محنطة ، تم قتلها منذ زمن طويل ، ويمر بنا شارل في تلك اللحظةبالذات خارجاً من القاعة ، تناديه ، يتجاهلها . تقول له وقد انتشرت غيمة السواد خارج عينيها وغطت وجهها كله : شارل ... اطلق سراح الذئبة . امنحها الحريــة .. اطلق سراحها ، ماذا تريد منها ؟

ويجيبها شارل ساخراً : لا استطيع ان اطلق سراحها يا عزيزتي لانها ستموت جوعاً اذا فعلت ذلك . لقد اعتادت الرفاهية في قفصها الذهبي واعتادت كسلها وصار جزءاً منها وهي تقضي وقتها في مضاجعة اي ذئب عابر وتبكي بين لقاء ذئب وذئب مدعية انها تريد حريتها . الحرية عمل وهي قد افسدها الكسل وانتهى امرها !

(فاجأني أحمد ذلك المساء: لا حاجةمادية بناإلىعملك بعد الزواج. راتبي يكفينا معاً ! قلت له : يكفينا مادياً لكن عملك أنت لا يكفيني إنسانياً . أنت أنت ، وأنا أنا ، وأحبك ! إنك تراهن على الكسل وتريد أن تفسدني !!...

وفي الصباح قرأت في المجلة التي أعمل بها — والتي يرئس تحريرها — مقالاً في بريد القراء يتضمن شتائم مقذعة في شخصي (غير الفاضل) ودعواتي لتحرير المستعبدين من نساء ورجال ... كانت رسائل كثيرة من القراء تنادي بقطع رأسي ... هذه الرسالة مذاق آخر : فيها طعم المكر والسخرية

والحقد . القراء يقبلونك أو يرفضونك لكنهم يفعلون ذلك عادة بطيبة عذبة. لهذه الرسالة مذاق شخصي .

ببساطة توجهت إلى المطبعة . كان خيط من الود العميق يربطني بعمالها . كنت أصحح مقالاتي في كنفهم المشبع بالحبر وصوت الآلات وكانوا يقاسمونني رغيفهم وكتبهم الثورية ، الفنية منها بصورة خاصة . لا أستطيع مثلاً أن أنسى العامل عبد الإله الذي أهداني كراساً فيه صور متحف الطين في أحد البلدان، وتطل من الصفحات وجوه تماثيل صلصالية ، فيها كل حيوية الغضب من أجل الكرامة واللقمة ...

سألت عبد الإله : هذا المقال البذيء ضدي في صفحة القراء والذي كرسوا له الصفحة بأكملها ، من أعطاك إياه ؟ محرر الصفحة ؟ قال بصدق البسطاء البسيطي الكذب : نعم محرر الصفحة لا رئيس التحرير !

قلت : هل أستطيع أن أرى البروفات ؟ قال : أعتقد أننا أتلفناها بعد صدور العدد فوراً ...

وكانت يداه تفتشان بين كوم من (أصول) المقالات ، واستخرج من بينها النص الأصلي .

... وكان بخط أحمد كما حدست !...

ذلك المساء كان أحمد رقيقاً وعذباً وعاشقاً (يحبني مهزومة وهشة ومُدَمَّرة . أظنه يتصور هذه الصفات ضرورة للأنوثة المعطاء) . قلت له بصدق مباشر وحزين : لماذا تحاول أن تفسد عملي ؟ لماذا تسطر المقالات ضدي وتذيلها بأسماء مستعارة للقراء ؟

قال دونما مواربة : كي يطلب مني صاحب المجلة طردك وأستريح من حريتك وعملك وتصيرين لي وحدي ولبيتي .

ـ إنك تعاملني كما كانوا يعاملون أبي في العمل . باذلال واحتقار .

وأحسست بفقاعات الغضب تجتاح رأسي موجات ألم .

وقلت دونما مواربة : لست صيدك الذي تمتلكه وحدك . ويجب أن تفهم أن ما من حب قادر على دفعي للتخلي عن حريتي . إنك تعتدي على إنسانيتي حين تحاول أن تكون حاجزاً بيني وبين عملي ، أي ممارستي لذاتي . ولست من ذلك الجيل الذي كان يرى في الأنانية المفرطة علامة من علامات الحب.. سأهجرك إذا لم تمارس نقداً ذاتياً لسلوكك . وانفجر يضحك وهو يكرر عبارتي : نقد ذاتي ...

حسناً . ربما كنت مضحكة والعبارة ببغائية لكن المضمون عادل والنقد الذاتي لا يستحق هذه السخرية كلها مني ...

وبدأ هواي الجامح يكتشف كوابحه السرية ويتعلم كيف يجعلها تعمل لتواجه ضعفي الغريزي أمام نوازع جسدي الأرعن) .

كريستين تنتحب بصمت ، دونما دموع ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة جثثية ..

تلك الثرية ، المرفهة ، المدللة ، التي تمثل النساء اللواتي امقت عادة (واحسد ايضاً) ، احسستها بائسة وهشة ، وامتلأ قلبي الحزين حساً بالمودة نحوها ...

شيء ما يربطني باستمرار بالنساء المكسورات أياً كانت المفارقات ...

(قالت ناديا صديقتي الأثيرة التي تمتلك طموحاً صحفياً أشد عنفاً ونزقاً من طموحي : إني آسفة . سمعت نبأ (فسخ خطبتك) مع أحمد . أخبرني بذلك صديقه نديم الذي تناول وإياه طعام الإفطار هذا الصباح في مقهى (شي بول) . وقال إنه قص عن إصبعه خاتم خطبتكما ...

إني آسفة فعلاً فهو رجل رائع وأعرف أنك أحببته بعنف وعمق .

ـ أحببته بصدق : أجل أحببته . ولكن حبي لرجل يجب أن يظل حادثاً عرضياً في حياتي لا محوراً لها .

قالت بفضول شديد : هل أنت واثقة من ذلك ؟ ألم يعد يعني لك شيئاً ؟

قلت وأنا ألحظ اهتمامها بأن أؤكد لها انتهاء علاقتنا : لقد انتهى كل شيء. طردني من المجلة .

وعلمت بعد ذلك أن ناديا التحقت بالعمل فيها كمحررة . التقينا بعدها . وسألتني من جديد عنه وأكدت لها من جديد متألمة نصف كاذبة لا مبالاتي به ، ولعلها صدقتني لأنها أطلعتني على ساعة يدها وهي تقول: « هذه هدية منه . كنت دوماً أصل إلى اجتماعات التحرير متأخرة وأنت تعرفين إنني لم أرتد ساعة يد في حياتي ، وسألني لماذا أتأخر باستمرار قلت له بأنني لا أرتدي ساعة فما كان منه إلا أن أهداني هذه الساعة »....

ذلك المساء شاهدت اسمها في المجلة التي طردت منها . لم أغضب . كنت أحبها كثيراً وأعرف أنه هو أيضاً سوف يحبها ـ على طريقته ـ .

التقينا بعدها . لم تحدثني عنه فعرفت أنها تحبه وأنه الآن دورها لطبخ (الملوخية) من أجل الصحفيين الزوار .

وشعرت بألم عميق يخترقني لكنني أيضاً أسفت لأجلها وشعرت بغيظ هائل يجتاحني وبرغبة طفولية في عتاب ما ، وهي التي تعرف أكثر من أي إنسان آخر كم أحببته وكم يؤلمني ذلك الجرح الذي لن يندمل بسهولة . لكنها فاجأتني بالسؤال : وأنتِ ، أما من حب جديد في حياتك ؟

قالتها وهي تنظر في ساعتها المهداة إليها منه فتذكرت بأنها لم تعد شاردة في الزمن وإنما مدقوقة إلى إطار ساعته ...

قلت بصدق أيضاً أكافح نزقي وغيظي : هنالك عشرات من قصص الحب اليومية في حياتي الغنية بالصراع والأحداث ، وليس بالضرورة أن يكون محورها « ذكر » . إنني ألتقي كل يوم مع عشرات الرجال في المقهى والحزب والنادي والمحاضرات والمعارض وأحس بكثير من الود المتفاوت نحوهم وتمتعني رفقتهم دون أن تعني « ذكورتهم » لي شيئاً .

– وعملك في المجلة الجديدة ؟

– بائس ومهين . لكنني مصممة على أن أمتلك ذات يوم مجلتي الخاصة ، بل ودار نشري الخاصة .

قالت وهي تنظر في ساعتها : آسفة تأخرت ولدينا اجتماع مجلس التحرير .

وتخيلت نظراته تحتويها ، تدغدغها بخبثه الذي أعرف ، وذلك الشعاع الجذاب الآسر ... وشعرت بقنوط عميق اخترقني كسهم . وأنقذني منه أن علي أن (أهرول) أنا أيضاً إلى حلقتي الرفاقية التي عدت إليها .

ذلك المساء الحزين ، أصر رفيق وخطيبته على أن أرافقهما إلى « السكوتش كلوب » للاحتفال بميلاد حبهما . لماذا السكوتش كلوب بالذات حيث التقيت بأحمد وأحببته وعشت واياه لحظات راعشة كضوء ذلك المكان ؟.. لإله الصدفة دوره أيضاً ! ! كان الإلحاح كثيفاً فقبلت .

أمام الباب واجهنا بائع الياسمين الفتى الذي طالما اشترى أحمد لي منه عقداً مع كل سهرة ، واحسسته مثل « وكيل للذكرى » جاء ينكأ جرحي وكان مجرد النظر إلى وجهه مؤلماً . لاحظت أنه ازداد طولاً وتحول من طفل إلى فتى ووعيت أن زمن فراقنا بدأ يكبر وحين التقت نظراتنا قرأت في عينيه استفساراً كأنه يسألني : ماذا حدث ؟ أين أحمد ؟

رفيق اشترى عقداً لحبيبته وعقداً لرفيقته (لي) وأحسست بغصة عميقة رفضتها فكرياً وقررت ممارسة نقد ذاتي بعد السهرة (!) .

دخلنا ، وكان لا بد من أن ترتمي نظراتي على الركن المفضل لنا والذي كان يحتوينا ، وكانت المفاجأة : هو هناك ... وفي مكاني صديقتي ناديا .

ارتبكت هي . ارتبك هو . وارتبكت أنا. لكن كل منا تابع دوره ،والتهم صحنه ، وشكر الجرسون ، وابتسم وقال أشياء ذكية ... وانتهى المساء ...

وفكرياً لم يكن لدي أي اعتراض على سلوك ناديا .

لقد سألتني ذات يوم ما إذا كنت راغبة فيه وقلت لها « إنه انتهى » . صحيح إنها رافقت حبنا وكانت موضع سري ، وكانت سبباً لشجاري أكثر من مرة معه بسبب حرصي على موعد لقائي بها كحرصي على كل أشيائي التي رفضت أن ألغيها من أجله ، لكنني أيضاً لاحظت بحسرة أنها صارت تتجنبني منذ التحمت به ، أم تراها كانت غارقة في عملها الجديد ومتطلباته ؟

وأنا مع ذلك لست حزينة لأنها حلت محلي بقدر ما أنا حزينة لأنها توهمت أن ذلك يجب أن يُخفى عني . لست غاضبة لأنها تجلس في ركني . غاضبة لأنها تتوهم أنها تخونني وتخفي بالتالي ذلك عني . أن أحبهما يعني أن أحب سلامهما . أحس بكثير من الود نحوهما ، هو « كذكر » يرفض ذلك أما هي ، فلماذا تخشاني ؟ أم تراها تخشى أن أذكرها باستحالة أية علاقة إنسانية معه ! إنها لا تريد أن ترى علاقتهما في مرآة مكبرة ؟...

ولكنني كنت أعرف ناديا .. كانت فتاة ذكية ومتحررة — ولن تستطيع قضاء بقية حياتها وهي تطبخ (الملوخية) لرفاق المهنة ، ولم يكن ضرورياً أن تتجنبني كي تكون معه وله .. أم تراه كان ضرورياً ؟...

و ...

...لقد غدر بها بوضاعة ولا أشعر بالشماتة !... يبدو أن نادية تجرأت على السفر مع صديقة أخرى إلى بلد عربي مجاور دون استئذانه أو دون رضاه (أو ربما بعد قبوله الفكري ثم ندمه العاطفي الأناني) وهناك قامت ببعض العمل وبعثت إليه ببعض اللقاءات والمقالات ، فماذا فعل ؟

نشر في ركن بارز بالمجلة تحذيراً إلى القراء من المدعوة نادية التي تنتحل صفة مراسلة للمجلة ....

غضبت بعمق لأجلها وحين التقينا ، تجاهلنا الحكاية معاً ، لكنني أحسست بصدق أنني الآن فقط صرت أكرهه واحتقره . كنت وحدي ملجأها لأنني وحدي كنت أعرف كم قاست ... كنت قد سبقتها إلى تجربة حبه الأناني المفترس الذي يجهل تماماً أن المرأة تستطيع أن تفعل شيئاً لهذا الكون الحزين أكثر من طبخ (الملوخية) !

آه ليتني استطيع ان أنضم الى هذا القطيع الراقص الصاخب حولي ..؟ ليتني اتعلم كيف أثمل .. لقد انهدم سد النسيان وها هي الذاكرة تتفجر بحيرة من الدم والغصات .. وها أنا ملتصقة بسرج الحصان تحتي على الارض ، وحصان الذكريات اللامرئي يركض بي الى قارة الماضي دونما رحمة ... يمعن ركضاً بي الى أرض الجمر ومستنقع اللذات السود ..

(تلك الظهيرة ، لا أدري كيف ركضت مسعورة نحو الشاطئ الخاوي إلا من عاصفة خريفية مفاجئة ، والرعد يلتهم المدينة ، وعجزت عن البكاء وحتى عن الانتحار ، ووجدتني أئن ببطء خافت ، ثم بصوت مرتفع .. ثم ذلك الأنين من الكلمات المهووسة يستحيل نوعاً من الصراخ ... من العويل .. وأنا أعوي وأعوي ... ثم فجأة صحوت على صوت عوائي مخيفاً ممتزجاً

بالرعد ومسامير البرق النارية تدقني إلى الأفق ، سمعته بالاذن التي اعتادت الأصوات في قالب الكلمات .. وغمرني خوف رهيب فقد أدركت أنني أعوي لأنني لا أجد إنساناً في هذه المدينة كلها أستطيع أن أقول له .. وأن أستعيد إنسانية عذابي حينما أحدثه . فقدت الدموع واللغة ...

ثم صحا الجو فجأة ...

صار دافئاً بطريقة غير عادية ... صارت الريح دافئة بطريقة شريرة كأنها أنفاس ساحرة فمها الأفق .. أحسست أن دفئاً خبيثاً ينبعث من الكون (أو مني ؟) ...

آه تلك الامسية البيروتية الشهوانية ، يبدو أنني كنت قد بدأت انتحر على طريقتي ... لم يعد بوسعي أن أحب أي رجل ، لكنني تلك الليلة كنت التهب وجسدي قارة نداء ... ما ذنبي إذا كان المساء قد أقبل فجأة حاراً طائش النجوم والبحر استرخى ومدد ساقيه نحو المدينة ؟ ما ذنبي إذا كنت ضعيفة أمامتلك النشوة الحارة العابرة والطويلة مثل صوت مواء قطة في ليلة شباطية مقمرة؟... ما ذنبي إذا كنت بحاجة إلى ما يدفع بأكثر الرجال للذهاب الى أماكن بائسة خافتة الضوء ودفع الثمن وقطف اللذة السريعة العابرة ...

على الرصيف المقابل لمكتبي لمحته . كان شاباً شديد الوسامة مخنث المظهر ، يقف كمن لا يدري إلى أين يذهب ...

سألته ضاحكة : أيها الرجل ، كم ثمنك ؟ ... أجل . بدأ الأمر بنكتة . أم ترانا جميعاً نتستر وراء الهزل حين نرتكب أفظع خطايانا ؟ بدا على وجهه ظل من خوف ودهشة .. التهبت رغبتي به وبإذلاله . سألته للمرة الثانية بصوت جاد وشرس : كم ثمنك ؟!

هنا انفجر ضاحكاً . اعتبر الأمر نكتة . فتاة (عشرينية) تسأله عن ثمنه . ضحك ومشى ، فسرت الى جانبه ، ولو مر بنا بائع الياسمين لأشتريت له عقداً .

وحين تأكد انني جادة ، مضى بي الى غرفة ثرية وبدا على عجل من أمره كأنه يخشى عودة شخص ما فجأة . قبل أن أغادره سألته: كم يريد من النقود .

لقد استمتعت بزمننا العابر القصير ، لكنني كنت طوال الوقت أنتظر تلك اللحظة ، لحظة أغادره وأسأله : كم ثمنك ؟

في وجهه بدت الدهشة . ثم الغضب . سألته : لماذا هو غاضب ؟ ألم يسبق له أن فعل ذلك من قبل مع عشرات النساء ؟ ولماذا من حق الرجـــال وحدهم أن يؤلمهم ذلك ؟

وغادرته بعد أن رميت إليه بليرة ورقية واحدة . لم أكن أمتلك من المال ما يكفي للتبذير كأمراء الليل . كنت أميرة الليل الفقيرة المجروحة طولاً وعرضاً على طول الليل وعرضه وعلى طول النهار وعرضه وعمقه أيضاً ..

وبعدها ألفت ذلك ولا أدري لماذا ... كل رجل يقبلني أو يقترب مني (أكثر أو أقل من ذلك) ، كنت أجدني أدس في جيبه ليرة ورقية واحدة وأنا أشعر براحة حاقدة تغمرني .. ثم صرت أقبل أكثر الدعوات التي توجه إليّ كي أمارس فيما بعد تلك النشوة الغامضة ، أثناء ترك ليرة ورقية واحدة تحت الوسادة أو تحت الفراش أو في جيب الذين لا يخلعون ثيابهم كلها ... و ...

ولم أعد أجد الوقت الكافي للكتابة المتقنة ، وللعمل المبدع ،وللحلقة الحزبية وللرفاق ...)

آه اني اتذكر واتذكر ولا املك لأمري شيئاً .... اتذكر بمرارة انني في البداية لاحظت ان سلوكي بدأ يهتز دون ان املك لأمري شيئاً .

ذلك التطابق الرائع بين الفكر والسلوك والذي كان مصدر اعتزازي وقوتي بدأ يتزعزع .. احسست بالزلزال . بالخوف . بالحيرة . بسلوكي الغامض يحيرني .

صرت امضي مع رجال لا اعرفهم واهرب من الذين قد أحبهم واعرفهم وارغب فيهم. خلَتْ العفوية من علاقاتي وحل محلها الانحراف والتحدي وصارت شبيهة بعلاقة اكثر الرجال بالنساء : يهربون من العلاقات الانسانية الحميمة ويفضلون العلاقات السريعة العابرة التي يدفعون ثمنها وينتهي الأمر دونما تعقيدات ... — او يتوهمون انه ينتهي دونما تعقيدات — ...

(حين أغمدت الليرة في جيب بيجامته الثمينة كان يشخر بصوت مرتفع وكان لليرة في يدي ملمس الخنجر وكان الثراء المحيط بي يزيد في استفزازي... بقايا الطعام على المائدة تكفي لإطعام قبيلة الأطفال عراة الأقدام الذين يوقظني صراخهم تحت الكوة الضيقة لغرفة نومي المسكينة ... وثمن محتويات الغرفة يكفي لدفع أقساطهم المدرسية جميعاً لمدة عامين على الأقل ...

كنت انتقي الذين أنا جلادتهم وضحيتهم من الأثرياء ... وأمقتهم أكثر بقليل مما صرت أمقت نفسي ، وأعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر طويلاً. حتى ...

... حتى جاءتني الدعوة للسفر الى تونس للكتابة عن افتتاح الكازينو أي للكتابة عن كل ما كنت أقف ضده واحتقره ... ودهش صاحب المجلة حين أبديت حماساً فائقاً للذهاب وللكتابة ، عن الحدث الجلل : افتتاح كازينو

جديد صغير في كازينو العالم العربي الكبير الممتد من محيط الرمل الى خليج الرمل ! ..

وكان ممكناً الامعان في النسيان ولعبة التخدير لولا ...)

لولا تلك الذئبة المقيدة في القفص الذهبي ...

لم يبقَ غير عدد ضئيل من المدعوين .. والموسيقى صارت خافتة وحزينة ... كريستين لا اجدها كي أهمس في أذنها انني سأتسلل الى قفص الذئبة واحاول اطلاق سراحها .. انطونيو يعترضني .. يحاول ان يقول لي شيئاً بالاسبانية .. يتحدث في البداية ، ثم يصمت فجأة كأنه يتذكر انني لا افهم معنى ما يقول .

اتجاوزه متسللة الى الحديقة الخلفية حيث الذئبة المقيدة ... لا ادري ما الذي يشدني الى هناك ...

وانا اتلصص عبر الاسلاك الشائكة التي احاط بها شارل الحديقة الصغيرة تجمدت رعباً ، فقد سمعت صوت ذئب جديد ...

سمعت عواء طويلاً مريراً خافتاً يعلو ويعلو حتى يستحيل صراخ انسان يعذبونه بعد ان قطعوا لسانه ! وكدت اشهق بدهشة وانا ارى في الضوء الشاحب ان شارل هو الذي يعوي هكذا . يبكي او يحتج او لا ادري بالضبط ماذا .. وانه ملتصق بباب الحديقة الخلفية الصغيرة الذي لا يملك مفتاحها سواه .. اسمع صرير الباب ، وهو يحني رأسه ليخرج عائداً الى الدار ويسقط النور على وجهه ويصعقني ان اميز وجهه المغطى بالدموع ... وهو يقفل الباب خلفه ، يخيل الي انه خلف كريستين هنا سجينة في مكان ما .. واسمع صوتها في الريح تكرر العبارة نفسها بحدة

لا مثيل لها من قبل . (شارل .. اطلق سراح الذئبة ... امنحها الحرية .. اطلق سراحها .. لقد افسدتها وامتلكتها ودمرتها . ماذا تريد منها بالضبط).

حين اختفى شارل وعيت ذاتي بطريقة لم احسها منذ اشهر .. وشعرت للمرة الاولى باستعادة احاسيس الخوف ... خفت ... لماذا انا هنا ... كيف استيقظت هكذا وسط العراء وكأن ما كان ، كان مجرد اعمال امرأة منومة مغناطيسياً تسير في نومها وترتكب ما لا تدريه ؟.. أجل استيقظت فجأة وسط العراء مثل امرأة نامت شهوراً طويلة ، كأنني كنت مخدرة في مدينة آكلي اللوتس ، حيث لا شيء سوى النسيان والاسترخاء المريح .. هذه الذئبة ، ماذا قالت ؟.. وبأية لغة نطقت فحركت الخيط الوحيد الباقي الذي يشدني الى عالمي العتيق المطفأ ؟.. وحركت الجنون في أكثر من روح كانت تتوهم انها ميتة ...

كان باب الحديقة الصغيرة محكم الاغلاق لكنني عبر الاسلاك الشائكة شاهدت القفص الذهبي للذئبة يلتمع وشاهدتها بوضوح في بقعة ضوء وقد استرخت قوائمها وهمد جسدها المحني على ذاته كطفل داخل الرحم ، ومن رأسها الملصق على ارض القفص كان خيط من الدماء يسيل . بين الاسلاك الشائكة تسللت وجُرحتُ وشتمتُ حتى التصقت بالقفص ولامستها. كان جسدها بارداً ، وتحسست رأسها : لا أثر لرصاصة فيه . ولكن ، على ذهب القفص بعض نقاط دم ! إذن ضربت رأسها بحديد القفص واستطاعت الهرب بطريقة ما !

من باحة الدار الكبيرة يتعالى صراخ كالعواء . اركض . العواء قادم من غرفة كريستين . اركض . ادخل الى الغرفة ، اراها ممددة في فراشها في الوضعية نفسها التي تركت الذئبة عليها ، عارية كالذئبة ، منطوية كطفل في رحم كالذئبة ، كأنها هي ايضاً عادت الى رحم ما ... ودون ان يقول

لي احد شيئاً عرفت انها ميتة .. وعلى الارض الى جانب فراشها كانت هنالك علبة أقراصها المنومة .. فارغة وقد اقترب شارلْ منها صامتاً ورفعها عن الارض وهو يهز برأسه جامد الوجه . حول السرير وقف عشاقها جميعاً بالصمت اللامبالي نفسه ، وحده الاخرس ميناتور كان يعوي ويعوي ثم تناول ملاءة غطى بها جسدها العاري كمن يسدل الستار على مسرحية .. فغادرت الغرفة ...

أنْسَل الى الباب دون ان يلحظني احد واركض خارج الدار دون ان يحس بي احد ، اظل اركض هاربة ، اركض على الرمال ، اركض مذعورة ، اركض وانا اسمع خطى تواكب عدوي ، وانا واثقة انني لمحت مع الخيوط الأولى للفجر ذئباً صغيراً سعيداً يركض الى جانبي .. اصل الى الماء واسقط اعياء ، اتكوم على الرمل بينما يلتهب الافق بوهج رمادي ..

وحين تبدأ الشمس بالشروق اشعر بالعار والخجل ، ويغمرني الماء تدريجياً وبالرمل أدعك وجهي وشعري وثيابي وافرك بهما يدي جيداً حتى يكاد يسيل الدم منهما واحس بذهول مخلص لانني لست خلف طاولتي في مقر عملي حيث شاهدت هناك شروق الشمس أكثر من مرة وحيث مربع خشبي صغير كتب عليه : عيوش .

الديك

إنني ألعن جسدي الانثوي ، فبسببه
لا ترون انني املك شيئاً آخر أثمن منه
بكثير .

ناديا سانجار

الحب هو طفل الحرية .
الحب هو الاهتمام العملي بحياة
ونمو المحبوب .
الحب يربط بصورة ودية شخصاً بآخر ،
وفي الوقت نفسه يصون استقلاله وكماله .

اريك فروم

* نشرت للمرة الأولى تحت عنوان « الخيط الذي لا ينقطع »

ليلة ٣١ – ١٢ – ٦٦

الديك

صوته الذي لم أسمعه منذ أسابيع ، ودون مقدمات :

– كوني جاهزة في الساعة العاشرة .أردت أن أقول : « لا يا بهاء كفانا ما كان . لا »

ولكن ، يبدو انني ظللت صامتة ، لأنه أضاف : « سأنتظرك أمام الباب ، لا تتأخري » .

أردت أن أقول في وقت واحد : « لماذا ؟ عناق جديد على الزجاج المكسر بأقدامنا العارية ؟ لا تعد . لا أريد . أريد . أحبك . أمقتك . لا . لا . لا » .

تصادمت في حلقي . أنفقأت فقاعاتها . بقي صمتي . وأنا أسمعه يغلق سماعة الهاتف صرخت بملء صوتي : « لا » .

ورأيته خلف السماعة الأخرى يبتسم ، بعد أن يعيدها إلى مكانهـــا

بهدوء ، ابتسامته الحنون اللئيمة الساخرة ، المتناقضة ، القاطعة كحد شفرة .. ابتسامته التي تلخصه في حركة واحدة .

ورأيت غليونه يتأرجح بين شفتيه ثم يهدأ ، ثم يمتصه ، ثم ينفث الدخان . وأحسستني أتقلب في فوهة غليونه ، أختلط بالتبغ المحترق ، أتلوى ، أصرخ ، أستسلم ، أتمرد ، أحاول الخروج ، ولكنني مع تبغه أذوب ، أتلاشى . لا ينتهي احتراقي .. وعاد يولع غليونه من جديد .

وعصرت جمرة لفافتي بين أصابعي فانطفأت ، ثم سارعت لاشعال أخرى . وكان الشريط السينمائي ما يزال يدور في الآلة الصغيرة العارضة ، وعلى الجدار المقابل تسقط الصور المتلاحقة ، انه الشريط الذي ألححت على صديقه غسان بالتقاطه لنا ذات يوم من أيامنا السعيدة ...

(امتثل غسان لرغبتي وصوب الكاميرا السينمائية نحونا واستعد للتصوير . كنا نقف عند أحد منعطفات طريق الجبل قرب حمانا . والطريق طويـلة أمامنا ، والشمس في آخرها باهتة وراء الغيوم كأنها ليست هناك ، والوقت يُمكن أن يكون فجراً أو غروباً ...

بهاء لم يستسلم ببساطة . كعادته بدأ يشاكس ويناقش ...

ــ ولكن ، لماذا تصرين على أن يصورنا معاً ... مهمتي أن أخرج المشاهد للناس ، ومهمتك أنت أن تمثليها ...

ــ ولكننا لا نمثل الآن . اننا نحيا . أريد أن أحتفظ بشريحة من أيـام سعادتنا ، بقطعة منها .

ــ لماذا تصنعين منها علبة كونسروة ؟

– لأخبئها لأيام القحط.

– أيام القحط لن تكون.

– بلى، أعرف أنها ستكون. الأنثى هي الحيوان الذي يشم رائحة الزلزال)

ووقع الزلزال أكثر من مرة. وكنت حينما يقع أتابع حياتي المتناقضة – من الخارج – كأن شيئاً لم يحدث. اذهب إلى الجامعة وأدرس، وأذهب إلى المسرح لأتابع (البروفات). أضحك، أجامل، التقي الناس باكية كدمية تحركها حبال مجهولة... وحينما يأتي المساء وأخلو بنفسي أحسها زائغة بلا صيغة، مهلورة بلا وعاء، تركض من مقهى إلى آخر بحثاً عن وعاء، من صديقة إلى أخرى بانتظار أن يخاطبوها فتعرف من هي، وينادوها فتعرف اسمها...

أيام الزلزال لم أكن حية ولم أكن ميتة، كنت عاجزة عن فهم كيف يمكن أن يحدث ذلك، مصعوقة كامرأة وحيدة في جزيرة، تحدق إلى طفلها الذي وضعته ميتاً! فأهرب من هذا كله إلى غرفتي المعتمة إلا من شعاع الآلة، ينعكس على الحائط، لأصدق ان ما كان، كان حقاً!

تولد صور الأيام السعيدة. لا صوت سوى تكتكة دوران الآلة وصوتي وأنا أتمرن على أداء دور جديد اسمعه فأتلفت حولي بحثاً عن صاحبته.

وكنا في كل زلزال نخال ان الخيوط كلها تقطعت بيننا، والجسور انهدمت، والأرانب البيض ماتت، والكلمات استهلكت.

كنا نفترق دون عتاب، دون شجار، دون توضيح أو تفسير، هكذا فجأة نكف عن اللقاء.

وكنت أراه، دون أن أراه، يحاول العودة كما كان قبل ان يعرفني:

الديك الأوحد ... ديك القن الأوحد . ملك عشق الدجاجات . كنت أراه : يفتح نوافذ حريمه القديم ، ينفخ في البوق . تنهض جواريه من بعد نوم . عشرات منهن . يركضن خلفه في الغرف المعطرة الدافئة ، فتتأرجح الستائر الحريرية الملونة ، وتعلو رنة الخلاخيل والصرخات الأنثوية ...

ثم يحطن به كلهن ، وأراه يستسلم ، يحملنه إلى حمام جدرانه وأرضه من المرمر ، وأرى أجمل نساء بيروت الدمى ، حسناء تعنى بيده ، أخرى مزهوة باليد الثانية ، هرمة تفرك كتفيه وتدفن وجهها في رقبته لتسكب في قبلة شَرَهَ بقايا شبابها ... أميرة تتهالك عند قدميه ، ذكيات وتافهات وزوجات وعذارى يقمن على خدمته بالصابون المعطر والمخمل والشهقات والزقزقة .

ثم أرى البخار يتكاثف ويغطي الزحام الانثوي كله . ثم لا يبقى واضحاً سوى وجهه ، وجهه الذي لا عمر له ولا زمن كالسنديان ، وعينيه بحزن الأطفال فيهما ، والأصوات كلها تعلو وتخفت كصوت البحر في مغارة ، ثم يغيم حتى وجهه ، ولا أرى سوى شفتيه وتلك الابتسامة التي أعرف جيداً ، ابتسامته الحائرة الساخرة ، الطفولية اللئيمة القاطعة كحد شفرة ، وقد اختفى منها الحنان تماماً وحل محله شيء يشبه مزيجاً من نشوة وقرف ...

ولم نكن لنناقش ذلك بعد أن نلتقي من جديد ونعود سيرتنا الاولى ، فالذباب الذي يحط على مائدتنا ليس مسؤولاً عما يدور بيننا ، ولا دخل له فيما يحدث ..

أسابيع ... الحقيقة الوحيدة التي أعيشها صور على جدار ووهم اكثر كثافة من الحقيقة ... كلما انتهى الفيلم ، ودارت بكرته في الهواء ، اجمد لحظات وأنا أتأمل مربع النور على الجدار وقد فرغ من كل شيء ، ثم

اتحسس الجدار بحثاً عن اثر خدش ، أو جرح ، أو حجر ذائب أو نزف ، إذ لا يمكن أن يمر هذا كله دون أن يخلف أثراً ... ثم أعيد الشريط من أوله ... فتتتابع المشاهد على الحائط المقابل ... أنا وبهاء من جديد عـلى الحائط . نسير ، يدي في يده (ظهرنا موجه إلى العدسة) والطريق طويلة أمامنا . نقف . يستدير نحوي . يفتح فمه ويحركه ويشير بيديه يتحدث . أعرف ما كان يقول ولكن ليتني أسمعه بصوته . نضحك ، كنا نضحك ، لكننا الآن على الجدار ولا صوت سوى تكتكة الآلة الرتيبة ... من جديد يأخذ بيدي . ندير ظهرنا للعالم . نسير ، شارع طويل أمامنا ، يدي في يده نسير ، نسير ، لكننا هنا على الجدار ، نسير ونسير وعبثاً نخترق الجدار ، الشارع وَهْم ، وعبثاً نفتح كوة في الجدار نخرج منها ، خطواتنا لا تخلف اثراً على الجدار ، لا صوت لها ... لا شيء ... وانهض (نحونا) ، فيقع ظلي على الصورة ، ونَمَّحي ! أقف جانباً ملتصقة بالحائط وأحتال كي ألمس بيدي ما كان ، لكنّ ظِلّ يدي يسقط على الجدار في اللحظة نفسها ليبيد ما تحته ، وما كان كالدخان ... وهم تبخر ... وكنت أسرع إلى الآلة فأوقفها ، وأشعل النور ، وأظل أرى ظلّينا على الجدار ، ظل يدي في يده ...

ويده أذكرها جيداً ، قوية وحارة ، وحينما تتحسس رقبتي وكتفي تزرع الجمر في مسامي ، وحينما يضرب بها على المنضدة وهو يحدثني عن عملنا المشترك ، أشعر بأنني سأظل أنطلق وأبدع ولن يقف في وجهي شيء يده كانت النار وكانت المقود ... وأسابيع وأنا بلا دفء ، ولا دليل . . ولكن ، لا ... غداً لن أذهب ... لن ... ل ... ن ...

وبدأت « لن » تطن في أذني قرعات متلاحقة لطبول الحرب ... لن ... لن ... ووجدتني أسير مع ايقاعها ... لن ... لن ...

قررت أن أهرب إلى الشارع . ولما فتحت خزانتي لأرتدي ثوباً ما طالعتني مأساتي معلقة على طول شريط من الثياب ... ثيابي عجيبة ... نصفها ثياب بسيطة لطالبة بريئة ، تلاصقها ثياب براقة فاقعة الألوان عارية الاكتاف تصلح (لممثلة) حياتية ! . ثيابي متناقضة متنافرة ، ربما تشتبك في عراك عنيف فيما بينها حين أغلق الخزانة ، ثياب الطالبة تود قتل ثياب الممثلة التي تكافح بضراوة ، ثم تعود بسرعة إلى مكانها حينما تسمع وقع أقدامي في الغرفة ... أيّ هذه الثياب يخصني ؟ ماذا أرتدي ؟

هذا الثوب كان يحبه ، قال انني أبـــدو في زرقته المعتمة وأكمامه الموسلين الطويلة المنقطة بالأبيض والياقة الموسلين حول رقبتي كامرأة نائية إلاّ عن نسبرها ، ولا يشوه جمالها أي ابتذال ، ولا يعلو من تقاطيع جسدها فيه مواء « شباطي » ...سأرتديه غداً إذا ذهبت ... ولكن ... لا ... لن أذهب ... لن ... ا ... ن ...

وتعود « لن » تطن في أذني ضربات متلاحقة .. قرب سريري « كنزة » تخصه ، خلعها ذات ليلة وأمرني بارتدائها لأنني كنت أرتعش برداً في السيارة ، بعد سهرة في الجبل استهلكت دفئي كله ...

(ــ خديجة ... إنك ترتعدين ...

ــ البرد لا يطاق بعد دفء (الجيتان) ... المشكلة أن إحساسنا بالبرد يزداد إذا كنا قد عرفنا الدفء مرة ...

ويلتفت إليّ ، في نور السيارة الباهت أستطيع أن أميّز الحنان يغزو ابتسامته ويأتي على ما فيها من سخرية وحدّة ، ولا يبقى إلاّ الحنان ...

يهمس : « اقتربي » ...

الحرارة التي فاحت من الكلمة الهامسة كانت كافية لأن تلهب وجني . ومع ذلك سألت بتخابث بريء اللؤم : « لماذا ؟ لتثبت لنفسك أنك قادر على تدفئتي ؟ »

— لا ... لأني أريد أن تقتربي ...

واقتربت . أحسست أني أمتزج به ، انه لو تكلم لخرج صوته من حنجرتي أنا ، لو أشعل لفافة لأمتلأت رئتاي بالدخان ولنفثته من بين شفتي ... لم يقل شيئاً ... لحظات صمتنا كانت هي الرائعة ... نتفاهم فيها ، نتحاور دون بلادة اللغة ووساطتها ، يمتد بيننا خيط ينبت من أعماق لا تعترف بالمنطق ولا بالآخرين ولا تعرف المساومات ، أعماق عتيقة عتيقة ... وجدت مع أول ومضة مشاركة أضاءت عيني إنسان وقبل أن يولد المجتمع وينظم قوانين هذه المشاركة والاعتبارات التي تنطوي عليها من غيرة وكبرياء وتملّك ومقايضات. ذلك الخيط المعجزة ، الخيط الذي لا ينقطع ...

— بهاء ، الحر شديد ، لماذا لا تفتح نافذة السيارة ؟

ونضحك . ونعود إلى حوارنا الصامت) .

التقطت « الكنزة » عن سريري . ارتديتها وأنا خائفة من أن تقول شيئاً ، من أن يصرخ من داخلها صوت نسيناه فيها : « خديجة ، اقتربي » ... هبت منها رائحته الخاصة . تذكرت جسده ..

وهربت إلى الشارع ... سرت طويلاً قبل أن أتساءل : إلى أين ؟

لم أكن أدري .

كل ما كنت أدريه أنّ عليّ أن أذهب . ولو إلى « لا مكان » ...

لذا توقفت فجأة عن التقدم وأخذت أحرك قدمي في خطوات منتظمة

دون أن أنتقل من مكاني ريثما يتم التفاهم بين رغبتي في الهرب المطلق ، المرتكزة غريزياً في ساقين تتوقان إلى الركض ، وبين منطق المكان الذي يحتم عليّ الاتجاه إلى مكان ما .

منذ افترقنا والشجار قائم في نفسي ، مـــات الانسجام في داخلي ، وانفصلت نزواتي عن مداراتها المرسومة وصرت عاجزة عن تقرير أبسط المسلمات .

مات إله المجموعة الشمسية وعما قريب تتصادم ويحرق بعضها بعضاً . يبدو انني كنت لا أزال في مكاني أراوح بقدميّ الراغبتين في الهرب ، واللتين انفصلتا تماماً عن ذهول دماغي الذي لا يدري إلى أين يوجههما بعدما فقد قدرته على التخطيط ... التخطيط ...

(بهاء .. لماذا لا تصارحني بوجهة نظرك حين تعتقد أنني أخطأت بدلاً من لعبة شد الحبل التي نمارسها كمراهقين غير ناضجين ؟

— لأنني لا أريد أن تكوني دمية أصنعها فتمنحي نرجسية الخالق . أريد أن تخططي لنفسك لتكوني ذاتك ...

— هذا كلام جميل جداً،لكنك عاجز عن ممارسته ، وأنت تعرف ذلك جيداً . أنت اليوم مثلاً غاضب لأنني قبلت العمل مع مخرج آخر في مسرحية جديدة ... ان عملي مع عبد الأمير قهر حسّك بالتملك ..

— قلت لك وكررت : لا أريد أن أتحدث حول هذا الموضوع . انت حبيبتي وكفى ولا علاقة لي بعملك ولكن تذكري : اذا عملت مع مخرج سواي ، لا تفكري بالعودة إليّ كمخرج !

— ها أنت تتخلى عني مهنياً يا بهاء ... أيام كنت لا تحبني ، كنت تحترم

عملي وانسانيّتي ، واليوم تنسحب . لماذا يكون معنى الحب عند الرجل الشرقي تدمير عمل حبيبته وكيانها ، وارغامها على محاولة تكيف تلغي أصالتها ؟ لماذا حبك لي يعني محاولة افقاري وتكييفي (على قياسك) كالحذاء ؟

ـ أنا لم أمنعك من العمل والتمثيل ، شرط أن يكون ذلك معي ... ما حاجتك إلى عبد الأمير وسواه وأنا لك ؟

ـ أنا بحاجـة إلى نفسي في الدرجـة الأولى يا بهاء ! ... أحبك ، لكنني لا أستطيع أن أكون مجرد صدى لرغباتك . مجرد صدى لموهبتك . حبي لك كرجل لا يلغي إعجابي المهني بمخرجين سواك . أنا ضد عبادة الفرد في مجال العمل . أريد أن أجرب العمل مع من أراه مبدعاً لازداد علماً وعطاء .

ـ بل لتزدادي خبرة (غرامية) .. ولتضيفي أسماء جديدة إلى سجلك ..

ـ سجلك العاطفي مبعث زهو لك . لماذا ؟ على أية حال دعنا لا ننحرف عن الموضوع الأساسي . لا تجرني من جديد إلى وحل الغيرة محاولاً تدمير فكري بذلك . باختصار : لا أستطيع أن « أصحح » نفسي وفقاً لمتطلباتك . وأعتقد أنها لجريمة أن أتخلى عن حقيقتي أنا أيضاً مثلك تماماً . ماذا تفعل لو قلت لك : تخلَّ عن كل ممثلة ما عداي وأنا (أعيلك) فنياً . تخلَّ عن عملك وأنا أعيلك مادياً .

ـ من تحب ، تتخلى عن أي شيء لأجل الحب ...

ـ لا أستطيع ارتكاب فعل « العدوان » هذا تجاه نفسي ، وباسم «الحب»! الحب مناخ نمو وازدهار للطرفين لا عملية قرصنة من جانبك لافقار روحي

تدريجياً وعزلي وجري إلى الجفاف . أنا أيضاً لي روح وكيان وتطلعات . أنا أيضاً لي رأي وطموح . هل فكرت مرة بذلك ؟)

إلى أين ؟ الى أين ؟

نظرت الى اسفلت الشارع مستجدية أن يتحرك هو تحت قدميّ أن يقودني الى مكان ما ، بينما أنا احركهما .

وكانت السيارات تركض حولي بسرعة مجنونة وصوتها ريح تصرخ ، وسيارة تكاد تصدمني ورجل يشتمني : « مكانك راوح . واحد اثنين . مجنونة » ...

ثم بدأت أرض الشارع تتحرك بي ، وغمرني امتنان كبير لها . إنها تنفذ ما عجزت عنه ساقاي ، إذن فهي ترتبط ارتباطاً مباشراً برأسي (!) ومن المفترض أن تلتصق به ، لذا تركت ساقي تركضان وحدهما في الشوارع ركضاً مسعوراً أعمى ، ركض حيوان جريح طريد ، لا يعرف أين جرح ، ولا من يطارده .

وبدأ ما تبقى من جسدي يغوص تحت الاسفلت ، ثم لم يبقَ سوى رأسي مزروعاً فوقه كنبتة من نوع جديد ، طحلب من الطحالب التي سوف تنبت في شوارع المدن كلها ذات يوم ، لأن أحداً لن يعرف إلى أين يذهب ... إلا إذا صعّدنا حبنا إلى حب آخر خلاّق ليشرق زمن « الحب الآخر » .

وظل الشارع يركض بي .

أضواء الاعلانات الملونة تمر امامي ، المخازن المضيئة تنزلق وبابــا نويل يطل من واجهاتها ، قطع حلوى تتناثر من كيس تمزق طرفه وضربات الكعوب المدببة لاحذية السيدات ، والبرد ، رائحة البرد والعطور ودخـــان السيارات ، رائحة الضجيج ، طعم الألوان المتدفقة ، ملمس الأصوات

المتداخلة ، إذن غداً ليلة رأس السنة ... غداً سوف أحتفل هنا بعد أن يخلي الناس الشوارع إلى الأصداف الدافئة ، سوف أطلب من بابا نويل في واجهات المخازن أن يغير ثياب المُهَرّج التي يرتديها ، ويخلع بسمته المصطنعة البلهاء ويسير معي في الشوارع بعد أن يرمي بكيس هداياه ، يترك مأساته تبدو على وجهه فهو يهدي الناس منذ أجيال ولم يخطر لأحد أن يمنحه شيئاً ... ولو هدية واحدة .

سيكتشف معي انه هو أيضاً ممثل بائس مهمته أن يسعد الناس ويسليهم ويمنحهم دون أن يفكر أحدٌ في انه بحاجة إلى من يمنحه مرة ، بحاجة إلى أن يتصرف أحياناً مثلهم بحمق ، إلى انه يكره أو يحب ، يسمو أو يسف ...

وسوف نبكي معاً ، وأبحث له عن اسم جديد ، ثم أناديه ببهاء ، ثم أقترح عليه أن نسهر في « الجيتان » وبعد أن يطردونا لأننا لم نحجز طاولة سنعود إلى الشوارع ، نشرب ونسير ، وسيحدثني عن أمراضه ، ويشكو إلي من الزكام المزمن وتصلب الشرايين ، يحدثني عن حبه لفتاة بائسة لم يُسمح له قط بأن يحمل اليها هدية .

ثم يسألني لماذا أسميته « بهاء » فلا أجيب لكنني أحس بأنني ازحف عارية على زجاج مكسر ، غير أن الدم النازف لا يسيل لأن البرد القاسي يجمده . ثم أتوقف عن الزحف على الزجاج المكسر لأن الصقيع يؤلمني أكثر . ثم أصرخ كي يطفئوا الأنوار حولي لأنني بحاجة إلى سكينة الظلام ...

وفي الصباح يجدوننا متصلبين فوق سطح بركة متجمدة المياه ، وربما يجدونني وحدي ، ربما ينسحب بابا نويل في الوقت المناسب لأنه اعتاد ذله زمناً أطول ، فيعود إلى ثيابه التي خلفها فارغة في الواجهات وتنبت لحيته وشارباه وينتعل بسمته البلهاء ويوزع هداياه على الذين ليسوا بحاجة اليهـــا ...

ويظل على المسرح الذي ليس سوى بركة متجمدة المياه ...

إذن غداً ليلة رأس السنة ...

ولهذا يعود بهاء ؟

ماذا لو عاد ؟ أيبعث ذلك عاماً جديداً ، ولا جديد في أعماقنا ، وحبنا أبداً محكوم عليه بالاعدام مع وقف التنفيذ ؟ يعلن تنفيذ الحكم ، ثم يؤجل في اللحظة الأخيرة ...

أما آن للسجين أن يستريح ؟ أما آن لرحمة الطلقة الأخيرة أن تنفذ في رأسه ؟.

– لماذا عدت ؟

لم يجب . ولم أنظر إليه . وكنت واثقة من أن الابتسامة التي أعرف جيداً تضيء شفتيه .

– لماذا ذهبت ؟

لم يجب . ولم أكن أنتظر جوابه . ولم أنظر إلى وجهه .

غمرني إحساس مفجع بأنه صادق في صمته ... إذن فهو أيضاً يحس معي بأن هنالك أشياء لا نستطيع مناقشتها ... رغم ذلك نجد أنفسنا مدفوعين إلى طرح الأسئلة ...

– أين كنت !

– لم أكن !

– لماذا ذهبت إذن ؟

فرحت لما لم يجب . أذكر أنني أردت أن أقول شيئاً ، أن أفسر شيئاً ، أن أتحدث عن نوع من التدمير الخفي يرافق كل محاولة التقاء كاملةوصادقة كأن الغربة أصل . ولعنة مجهولة تصيب من يحاول التحدي والتصدي لهذا القدر ... أذكر أنني أردت أن أسأله بمرارة عن الآلهة التي تمقت الخيط الذي لا ينقطع ، فتعاقب المتحدين بلفه على رقبتيهما ... أن احدثه عن حلمي بأن يكون حبنا « مختلفاً » .

ولكن وجدتني أسأل : « لماذا عدت » ؟

ومددت رأسي من نافذة السيارة ، ربما كي لا أسمعه يجيب .

وكانت السماء صافية ، وآلاف النجوم الصغيرة البعيدة هناك .

لم أشعر بأي شيء ... كنت حينما أراها أتمنى أن أكون وحيدة في صحراء كبيرة ، ممددة على ظهري ، ثم تقترب السماء مني بجسدها الكبير ، وتقترب ، حتى تلتصق نجومها بوجهي وصدري وتنطفيء كالفقاعات واحدة تلو الأخرى ، ثم لا يبقى سوى جسد السماء المظلم ، يلتصق بي كبيراً وحقيقياً حتى ليسحقني ، ثم أغمض عيني وأستعيد قدرتي على أن أحلم وأستسلم ، فوجوده كثيف ويجعلني أؤمن بأنه لن يفارقني أبداً ...

مرة ، ظننت أن بهاء لن يفارقني أبداً .

– لماذا تركتني ؟ لماذا عدت ؟

وأحسست بأنني من جديد أزحف على أرض الزجاج المكسر ، وعارية . وكانت في أعماقي طفلة تريد أن تبكي ، تعاتب ، تسأل بمرارة وتنتظر جواباً ، وكانت الطفلة تتضاءل شيئاً فشيئاً أمام إحساس جارف بأن الأشياء مضحكة ، إن ضحكة كبيرة ساخرة تنطلق من مكان ما ...

– خديجة .

قالها ببساطة ، بحرارة ، بحيرة يائسة ...

ونظرت إلى وجهه ، للمرة الأولى ربما منذ أسابيع . شعرت بأنني أختنق بأشياء كثيرة ، أختنق ... ثم قال : « خديجة ، أيتها المجنونة ، أحبك ».

وكانت « أحبك » تحمل مرارة العالم كله .

كلمة « أحبك » أحسستها طفلة يتيمة يرمى بها على أحد أبواب الأديرة في الظلمة .

« أحبك » قالها كأنه يرتكب خطيئة ...

وكانت لها حرارة الخطيئة وذلها وشراستها ...

« أحبك » وأحسست بمطر أزرق يهطل على العالم كله ، وبرغبة لا تقاوم في البكاء . لذا انفجرت ضاحكة ...

ـ تضحكين ، أيتها الممثلة في كل شيء ... كان علي أن لا أقولها ...

وأردت أن أفسر ..

كان ذلك صعباً ، كمحاولة عجوز سرد قصص طفولتها ...

وفجأة ، بدأ حوار غريب ، خيل إليّ أن آخر يتحدث ، وامرأة أخرى تجيب :

ـ إنك ممثلة قديرة . إنني لا أثق بك .

ـ هذا غير صحيح . لو لم تكن تثق بي لما عدت .

ـ سأكون صريحاً معك ، غاية الوضوح والصراحة ...

ـ كان عليك أن تكون هكذا قبل اختفائك !

ـ أحبك كما أعرفك ، وأكرهك كما يرسمك « الآخرون » .

ـ وما هو ذنبي في ذلك ؟ أم أنه ثمن طموحي في مجتمع لم تستقر أحكامه؟

ـ لا أدري . كل ما أعرفه هو أنني لا أريد أن يتحدث عنك أي مخلوق بالطريقة التي أسمعها أحياناً ... أنهم لا يعرفون ما أنت لدي ... وأنا لا يمكن أن أتحمل ذلك ... أفقد ثقتي بصدقك نحوي ...

ـ « الآخرون » ... كلما سقط إنسان تحت الأضواء صار فريسة لأمزجتهم وميولهم وأهوائهم ... لديهم فكرة مسبقة عن شيء أسمه « ممثلة » ، وهم ينظرون من هذه الزاوية وحدها إلى أي إبداع ...

ـ يقولون إنك ...

ـ أعرف ماذا يقولون . أي شيء أفعله ، أو لا أفعله ، يجب أن يفسر بهذا الأسلوب .

ـ قد تكونين على حق ، ولكنني لا أستطيع إلا أن أتأثر حتى الاشمئزاز .. ما زالت عاطفتي نحوك أقوى من كراهيتي لما أسمع ، ورغبتي في الهرب ... ذات يوم لن أقوى على المقاومة .. هذا كل شيء وبصراحة ...

ـ إذن فحبنا محكوم عليه بالاعدام مع وقف التنفيذ ، وقد ينفذ الحكم في أية لحظة ما دام الشرقي فيك يهزم الفنان .

وسمعت تلك الضحكة الساخرة تنبعث من مكان ما .

حتى تلك اللحظة ظللت لا أصدق أننا نحن نقول هذا ...

ثم فجأة سمعت صوتي أنا ينبعث من حلقي وأنا أئن بمرارة : « لا أستطيع أن أعمل شيئاً إذن ، ما دام الزلزال من « الخارج » ... ولكنني أدفع عمري كله ثمناً للحظة واحدة أضيفها إلى عمر أيامنا » .

ولم أكن أعني « الآخرين » ...

وظل بهاء صامتاً .

عاودني ذلك الإحساس الغامض بأن هنالك نوعاً من التدمير الخفي يرافق كل محاولة التقاء كاملة وصادقة .. وبأن هنالك من يتآمر على كل خيط يمتد بين إنسانين ...

إنه شيء أكثر حذقاً وخبثاً من « الآخرين » .

وطالت لحظة الصمت ، وعادت الكهارب تشع من بهاء ، من صدق الصمت ، وتساءلت : لماذا يحاول أن يفسر وهو يعرف أنه يكذب ؟

وعاد الصمت ، وامتد خيط خفي من الأحاسيس المترابطة بيننا ، من توق عجيب إلى اختراق جدار اللغة ، ودون أن يقول لي « أحبك » أحسست بالمطر الأزرق يهطل على العالم كله ، ولما أوقف السيارة فجأة وشدني إليه تمنيت أن أهرب . أن أظل أركض بلا توقف ، لكنني أيضاً أحسست بالنجوم فقاعات تلتصق بوجهي وصدري ثم تنطفيء ، وشعرت بصدر السماء يغمرني كبيراً وحقيقياً) ...

وجدت نفسي من جديد أمام باب داري .

إني كالكلاب الأليفة ، دوماً أعود إلى الأشياء التي آلف ...

دوماً أعود إلى داري ، دوماً أعود اليه ، دوماً يقول لي : « في العاشرة » ...

دوماً أصرخ : « لا » بعد أن يقطع خط الهاتف .

دوماً يجدني أنتظره في اليوم التالي .

دوماً لا أقول له انني بدأت أنتظر أمام الباب منذ التاسعة والنصف .

دوماً يدور بيننا ذلك الصراع الغامض لنتخلص من الخيط الذي لا ينقطع ، لكنه يوماً بعد يوم ، يزداد لفاً على عنقينا ويزيدنا اقتراباً وحباً عدوانياً . دوماً يدور الحوار الكاذب نفسه ليخفي جهلنا بمعنى ما يدور ...

بمعنى الصراع :

(كل ما يدور حولي ، كان بلا معنى ...

جئت إلى الحفل مع بهاء ، وهو يرقص مع أخرى لا يعرفها ، تمثل كل ما لا يحب في المرأة ، والحفل يمثل كل ما لا أحب في الحياة !

ظللت جالسة صامتة . ظللت أرقبهما وابتسامة مذهولة على شفتيّ .

كنت أتمنى أن أكتشف شيئاً جديداً كي أكف عن الزحف عارية على الزجاج .

فجأة تركها وحدها في الحلبة وجاء : « خديجة ، انهضي معي » ...

وكنت قد كففت منذ زمن بعيد عن محاولة الفهم ، ولكن الأصدقاء صعقوا .

والتصقت به ، كان انسجاماً لا يصدق يغمر تحسسنا الالحان ... كان جسدي يناسب جسده .

كنا لا نرقص وإنما نتحد ، وعاودت نظراته شراستها وهو يحاول أن يخفيني في صدره ، يتمناني لا مرئية إلاّ لعينيه ...

وفجأة انصب شلال من النور الأزرق الباهت ، تغير اللحن وصار إيقاعه سريعاً .

وتدفق عويل آلاف الشياطين من أفواه غامضة ، وكنت أنا في مركز النور وابتعد عني ، إنه يكره أن يرى الأضواء مسلطة عليّ ...

وأردت أن أصرخ ، وجدتني شبه وحيدة في الحلبـة وأكثر الراقصين قد انسحبوا ...

ووجدتني أرقص بجنون ... أتحدى ، أحتج ، أحس أنني في حركاتي كلها أمد لساني لكل من حولي ...

الأضواء ... الآخرون ...

سأموت وأنا أمثل ، لا أحد يستحق وجهي الحقيقي ...

ثم وجدت آلاف العيون المصفوفة حولي ترخي أهدابها . وسمعت ضحكة ، ضحكة ساخرة لإله عابث ملول ...

وانطفأ حقدي على الآخرين ، لم يبق سوى مرارة عجز مستسلم ...

عدت إلى مكاني قرب بهاء ...

على وجهه نظرة سمرتني .

في اللحظة نفسها تغيرت الموسيقى والأضواء . لحن إسباني مجنون ... أضواء حمر . رجل مقنع الوجه خرج يحمل ديكين . ديكاً في كل يد ... الابتسامة على وجه القناع ساخرة وبشعة ، والضحكة المشوهة التي أسمعها دائماً تنطلق حتماً من فم كهذا ... الناس يراقبون بذهول ما يحدث ... وضع الديكين على الأرض ... كانا في غاية الرشاقة ، والجمال ... اقترب كل منهما من الآخر ، أحسستهما مخلوقين حائرين ، لماذا هذه الموسيقى ، الصراخ ، الأضواء ، ماذا يريد الناس منهما ؟ ألصق أحدهما خده بالآخر في حنان عجيب ، تذكرت « أحبك » لا ريب في أن المطر الأزرق يهطل الآن في الخارج .

اللحظة الحلوة لم تدم ، الرجل المقنع يدفع كل منهما نحو الآخر ، يحمسهما بأصوات شرسة ، الناس يطربون ، غريزة القتال بدأت تثور ، أبعد الديك

الأول خده عن الثاني بسرعة ثم عاد فنقره . الثاني يرد الإساءة ...

الرجل المقنع يحمسهما ...

الناس في غاية الاعجاب بما يدور ...

بدأ القتال الشرس بينهما ، هكذا دونما سبب .

قبل لحظات من يدري بما كان يُسر كل من هذين المخلوقين في أذن صاحبه؟

قتال عنيف مشبوب ...

ثم رأيت رأس الديك الأول يتحول إلى رأس رجل هو بهاء ، ورأس الديك الثاني يتحول إلى رأس امرأة هي أنا ...

وبدأت مرحلة من القتال المرير ، من النقرات الوحشية وسط زوبعة من التصفيق ...

وغطيت وجهي بيدي ...

هدأت الموسيقى .

تطلعت ..

الرجل المقنع يحملهما ، كلاً منهما بيد ، ويدور بهما في الحلبة .

شيء كالدم يسيل على رقبتيهما ، أعينهما حزينة وحائرة ومهدمة ، ثم نظر كل منهما إلى الآخر ، نظرة حنان وأسف وحيرة ودهشة مما كان ...

ولما التفت إلى بهاء ، كان ينظر إليّ ، والتقت نظراتنا أيضاً والابتسامة التي أعرف جيداً لم تكن على شفتيه) ...

ما زلت أنتظر ...

إنها العاشرة إلاّ خمس دقائق ...

منذ ما يقرب من نصف الساعة وأنا أنتظر ! دقيقة ... دقيقتان ... ثلاث دقائق ... أربع ... ثم يحضر ...

أي عذاب يمكن أن يدور في مخيلتي ! أية ذكريات ! نصف ساعة من العذاب ، والحلقة المفرغة لا تهدأ صورها .

«كل عام وأنت بخير » ، هكذا يقول الجار الذي خرج منذ لحظات ، كلهم مقتنع بأنه يحتفل الليلة بعام جديد ...

لا أريد سوى أن أنسى البارحة ، لماذا لا يأتي بهاء بسرعة وأنسى البارحة ... وأتوقف عن استعادة لحظاته المريرة ثانية بثانية ...

إنها العاشرة تماماً .

أغمض عيني لأنني أعرف ان سيارته ستقف امامي بعد ثوان ...

والخيط الذي لا ينقطع يشدني من جديد إلى الزحف على الزجاج المسحوق ... والابتسامة التي أعرف جيداً على شفتيه ، رغم كل شيء ... لن ... ا ... ن ... لن استسلم ... ذات يوم سأتعلم كيف أقطع الخيط الذي لا ينقطع ...

لن استسلم ...

لن .. ا .. ن .. ن .

لن . لن . لن . لن .

الطوفان

(مَسْرَحِيّة مِن فصْلٍ وَاحِد)

ان السطور مطبوعة بالحروف السوداء
الصغيرة العادية على الورق الابيض ، غير أن
مجرد معرفة القراءة ليس كافياً لأجل قراءتها !..

الكسندر سولجينستين

٢٦ — ٧ — ٦٥

الطوفان

المنظر :

ترفع الستارة . لا يرى المشاهدون شيئاً . المسرح غارق في الظلمة تماماً (ولما كان تنفيذ ذلك مستحيلاً من الناحية العملية ، إذ لا بد من أن يُلمح شيء ما بسبب أضواء الصالة التي لا يمكن الاستغناء عنها كلياً) ، لذا لا مفر من أن يرى المشاهدون شبحين باهتين لرأسي رجل وامرأة يتمددان على منصة في منتصف المسرح دون القدرة على تمييز فيما إذا كانا يتمددان على أريكة أو فراش أو مشرحة مثلا .. على الجدار المقابل للجمهور ستارة لا أحد يعرف ماذا خلفها ونراها فيما بعد حينما تضاء الأنوار .

الموسيقى :

همهمات وتنهدات نشوة واسترخاء ، ممزوجة بموسيقى ، مشبعة بجو من الحنين الغامض الكثيف .. الموسيقى نفسها تتكرر وتتكرر كلما انتهت .

السيمفونية الثالثة لبرامز هذا موقتاً ريثما تصير لدينا سيمفونية عربية حقيقية بالمعنى الفني غير موسيقانا الحالية البائسة . حينئذ يمكن استبدال « برامز » بها .

ما دامت الظلمة دامسة تظل الموسيقى كما هي ...

أشخاص المسرحية :

١ ــ نوح (ن) : يظل صامتاً طوال المشهد الأول المعتم (المشهد اللامرئي) من المسرحية إلا من عبارتين : « لا أدري » ... و « ربما » . صوته عميق وبارد وقاطع اللهجة ، تنهداته وهمهماته مزيج من سخرية ونشوة .

٢ ــ امرأة ما : لا تعرف اسمها لأن أحداً لا يناديها طوال المسرحية . نسميها « الصوت الحاد » (ص) .. صوتها طفولي ومشبع بالحزن والمرارة وفي صرخاتها مزيج من استنجاد ولد ضال مغمور بالثلوج حتى ركبتيه وشبق كاهنة شهوانية نذرت لإله من رخام وسجنت معه .

٣ ــ رجل إسمه عيسى : أو محمد . لا يذكران بالضبط اسمه وكل مرة ينادیانه باسم . مهنته مصلح سيارات . لا نراه. «نوح» و «الصوت الحاد » يخاطبانه من النافذة ، ونفهم من الحوار أنهما لا يريانه لكنهما يعرفان أنه ممدد باستمرار تحت سيارتهما يحاول إصلاحها ، كي تنقلهما إلى مكان ما كجزء من رحلة عليهما تنفيذها لسبب مجهول وأنه دائماً مصلوب تحتها يحاول تصليحها رغم أنهم جميعاً يعرفون أن دواليب السيارة تلفت نهائياً وليس هنالك أي أمل في استبدالها لأنه لم يعد هنالك أية (دواليب) منذ عصور ، وهما من وقت إلى آخر يحاولان تذكيره بذلك ثم يتركانه يعمل لأنهما لا يجدان له عملا آخر .

بعد رفع الستارة عن الظلمة يشاهد النظارة المشهد « اللامرئي » على طول دقيقتين من الموسيقى والتنهدات الحالمة . ثم فجأة صرخة حادة متوترة تطغى على الموسيقى ، وتظل الموسيقى كما هي بعد الصرخة ... صمت هنيهة .

الصوت الحاد : آسفة ... هل اخفتك ؟.. اطفىء هذا النور الفظيع .

نوح — ....

الصوت الحاد (ص) : لست آسفة .. هل اخفتك ؟.

نوح (ن) : لا ادري

(ص) : كنت اقصد ان اضحك

ن — ...

(ص) — نسيت كيف كنت اضحك .

ن — ...

ص — هل تذكر كيف كنت اضحك

ن — ...

الصوت الحاد (بشيء من الرعب) : هل كنا نضحك ؟..

ن — ربما

صمت . الموسيقى فقط . من جديد الهمهمات والتنهدات ...

ص : نوح .. اني جائعة . قبلني .

الشبحان يصبحان نقطة سوداء واحدة .

ص : خائفة .. قبلني ..

(هنيهة صمت والموسيقى مستمرة ...)

(يزداد صوتها خفوتاً واحتقاناً) : جائعة .. خائفة ... ضمني اكثر

(هنيهة صمت والموسيقى مستمرة)

ص : كم ذراعاً لك ؟. منذ زمن بعيد لم أعدّها .

(في صوت حالم كأنها ترى ما تتحدث عنه) : منذ كنا في تلك الحديقة..

ولم تكن قد نسيت اللغة .. كنت ما تزال تحدثني ، فقد كنت مثلي ما تزال جائعاً وخائفاً واعضاؤك تؤلمك اذا لم افصد الدم منها بأظافري . (بشراسة) نوح .. ألا تذكر ... (بتوسل) هل تذكر (بذل باك خافت) هـــل تذكر ...

ن : (ببطء شديد حزين) ربما .. ربما .. (ينفجر ضاحكاً بقسوة يقول) ربما .. لا ادري .

ص — لم يبقَ من ذلك المكان الا هذه اللوحة .. انظر اليها .. اجل الى يمينك على الجدار .. في هذا النور الباهر لن تستطيع ان تراها .. هل تراها .. هل تستطيع ان تراها .

ن — ربمـــا .

ص — قل انك تراها .

ن — ...

ص — قل انك تذكر ..

ن — ...

ص — قل انك ما زلت جائعاً . وخائفاً . وبحاجة الى الالتصاق بشيء ما . بحاجة الى وعاء ما تنسكب فيه ليكون لك شكلاً .. وصيغة .. (تتبدل لهجتها الى عتب مرير) صيغة .. صيغة لوجودك . اجل كانت هذه هي كلماتك .. كلماتك بالضبط .. هل تذكر .

ن — ربمـــا

ص — لماذا نسيت « نعم » و « لا » ؟ « ربما » ، « ربما » ، كل شيء ، « ربما » ..

ن — ...

ص — لماذا علمتني هذا كله اذا كنت ستنساه ؟.

ن — ...

ص — (باكية) لماذا ؟ لماذا ما دمت قد نسيت ؟. هل نسيت ؟.

ن — لا ادري

ص — (باكية) لماذا ؟. دوماً وحدي .. وهذا الصمت يسقط لحظة بعد لحظة .. قطرة إثر قطرة .. حتّى اللوحة (صارخة) انظر اليها ، قلت لك اطفىء النور قليلاً لتراها .. (بحزن خافت من جديد) الاشجار لم تعد تهتز فيها ، والريح ماتت ، ووجه البحيرة تجعد ، والضفادع .. (بفرح طفولي) الضفادع .. مرة قلت لي اني ضفدعة .. لم اكن ادري انك تحب الضفادع هكذا .. (بفجيعة) كلها صمتت .. مثلك .. (بتوسل) ارجوك ، اطفىء النور قليلاً (هامسة) ضمني اليك ...

(صمت هنيهة والموسيقى)

ن — ...

ص — هذه الرحلة المشؤومة .. لا اذكر كيف ولماذا . حتّى حينما أطل من النافذة لا ارى ذلك الطريق .. لا شيء سوى الصحراء حول برجنا الشاهق .. نوح ، هل تذكر ؟.

ن — لا ادري ...

ص — هل كنا حقاً هناك ؟..

ن — لا ادري...

ص — احياناً يخيل إلي اننا ولدنا هنا على هذا الفراش .. (تتمطى باسترخاء) اعطني الوسادة المخملية باحدى اذرعك (تتنفس بحرارة) لا .. دع رأسي حيث هو .. واذرعك .. اريد ان احس بها قرب خدي . (بنشوة) نعومتها تذكرني كم انت خشن .. (تتنهد) كم احب خشونتك (بصوت خافت جداً) لم يبقَ منك إلا ملمسك .. وشيء لا اعرفه يجعلني استمر .. ربما لا املك الا ان استمر ... ربما لم يبق اي شيء منك .. ربما لم « تكن » منذ البداية .. البداية .. الطوفان . مرة قلت لي : في البداية كان الطوفان ، ثم قلت انك لست متأكداً .. ثم قات ما دمنا ننتظر الطوفان اذن لا يمكن ان يكون في البداية .. ثم قلت ربما ، لخلل ما ، لا تعرفه ، بدأنا من النهاية .. ولا فرق . قلت لا فرق لانها ربما كانت « دائرة » . قلت بالضبط : « استدارة فم وحش يضحك ساخراً وعلى دائرة شفتيه نتدحرج مع الدم والسم » .. هل تذكر .

ن — لا ادري ..

ص — وانا ايضاً لا اريد ان ادري .. ولا ان اذكر .. كف عن ضفر شعري كطفلة ، ربما ذلك ايضاً لم يعد يخدرني.. دع العلق ينمو على أذرعك ليمتصني .. (باكية) الا تحس كم اتعذب (متوسلة) اذا كان لا مفر من ان اظل وحيدة ... من ان لا تقول شيئاً ... من ان اكون وحيدة .. دعني لا اكون .. خدّرني ..

ن — ...

ص — دعني لا اكون .. تعبت من انتظار الطوفان الكبير .. سأظل ابداً هكذا جائعة وخائفة .. قبلني .. اعدم حواسي .. (باستسلام) اجل . هكذا .. جزيرة بعد اخرى .. لف أذرعك كلها ودعها تسقط .. جزيرة بعد اخرى غطسها في اعماق البحر (بنشوة خافتة) جزيرة .. بعد .. اخـــرى ...

ن — ...
ص — النعاس في الاعماق
ن — ...
ص — الطوفان في الاعماق .. وانت معي .. لماذا نخشى الطوفان ؟..
ن — ...
ص — هل نخشاه ...
ن — (هامساً بحنان عجيب) لا ادري ..
ص — هل نحبه
ن — (هامساً بأسى) : ربما
ص — اذا كنا نخشاه فلا بد من اننا نحبه .
هل انت واثق من انه سيجيء ..
ن — لا ادري
ص — ما الفرق سواء جاء ام لم يجيء ..
ن — لا ادري
ص — ما الفرق سواء كان رجلاً او امرأة ؟
(بغيرة) هل هو امرأة ؟..
ن — لا ادري

ص — قلت لي مرة انه ليس امرأة وطلبت مني ان اكف عن السخف .. لماذا اكف ؟.

ن — ...
ص — لماذا لا تجيب .
ن — ...
ص — قل شيئاً .. اني خائفة ..

ن — ...

ص — متى نرحل .. هل جئنا حقاً من قبل كي نرحل ؟..

ن — لا ادري

ص — هل انتهى ..

ن — لا ادري

ص — انتهى ماذا ؟.

ن — لا ادري ..

ص — هل انتهى عيسى من تصليح السيارة ؟.

ن — ...

ص — لماذا لا تسأله ؟

ن — ...

ص — اذهب الى النافذة وناده ..

ن — ...

ص — لماذا لم تعد تذهب الى النافذة وتسأله ..

ن — ...

ص — لماذا لم تعد تنهض الى النافذة وتحدثني عن الرمل الذي يطمر الطريق شيئاً فشيئاً ..

ن — ...

ص — لماذا لم تعد تغمرني بالاغطية الحريرية وتهمس ان ساعات الفجر الاولى باردة وقد يصيبني الزكام ، ولا تريد ان امرض قبل انتهاء الرحلة ..

ن — ...

ص — كنت ما تزال تنتظر انتهاء تصليح السيارة .. كنا ننتظر ذلك معاً .

ن — ...

ص — لم نكن نتحدث كثيراً عن الطوفان يومئذ .. لماذا ؟.

ن — لا ادري

ص — كنا لا نجروٌ على الحديث عنه . هل كنا لا نجروٌ ؟.

ن — ربمـــا

ص — اذن كنا نوٌمن انه هناك ؟

ن — لا ادري

ص — كنا نعرفه (هنيهة صمت) هل كنا نعرفه ؟.

ن — ربمـــا ...

ص — عيسى قال انه يعرفه ... ولكنه يعرف ايضاً ان عجلات السيارة ممزقة ، وانه لا بديل لها ، ولكنه مازال مستمراً في تصليحها ، ما زال مصلوبا تحتها .. لماذا ؟.

ن — لا ادري

ص — هل كنت تدري حينما كنا في الحديقة .

ن — لا ادري .

ص — هل كنا في الحديقة

ن — ربمـــا

ص — هل قال عيسى ان الطوفان قد يحمل بين الحطام والجثث عجلات لسيارتنا ؟

ن — ...

ص — لمن ؟ لماذا ؟ من يستعملها بعد ان نمضي ؟.. والى اين بعد ان تغطي جثة الطوفان الدروب كلها ؟.. (تزعق)

لمـــن ؟..

ن ـ لا ادري

ص ـ لماذا علمتني هذا كله اذا كنت ستكف عنه ؟.. لماذا ؟

ن ـ لا ادري ..

ص ـ اذهب الى النافذة وناده .. كان صوتك بريئاً وانت تهتف محمد .

ن ـ ...

ص ـ هل يجرؤ على ان يموت ؟

ن ـ ...

ص ـ هل يستطيع ان يموت ؟ .. دعنا (يستحيل صوتها غمغمة كأنها تحاول ان تنطق وهنالك من يكتم انفاسها ، ثم فيما يشبه صراخ من تحرر تقول بسرعة) لا تغلق فمي هكذا بشفتيك لماذا تخشى ان اقول لماذا تخشى ان اقول لك (من صوت العراك نعرف انه يسد فمها من جديد) اكشف الستارة ودعنا نراها . السيارة .

(يشهق) .

تخفت الموسيقى دون أن تختفي وتتوقف التنهدات . صمت شبــه كامل ...

صوت صفعة . صوت سقوط إنسان على الأرض وانتحاب .

ص ـ (تنتحب) ارجوك .. لا تتركني وحدي .. اين انت .. لا استطيع ان ارى شيئاً في هذا النور .. اعدني الى جانبك بذراعك الباقية حول خصري ...

ن ـ ...

ص ـ اني خائفة .. قبلني .. لا . لا تدع ذراعك الاخيرة تتلاشى .

.. **(نسمع صوت تدحرجها على الأرض) ..**

لا .. اعدني اليك .. خدرني .. انها تؤلمني جزيرة جزيرة .. الجزر مزدحمة بالكلمات .. الكلمات رؤوس حراب اتدحرج فوقها دون توقف . لا تتركني .. (تصرخ بوحشية) لا تتركني وحيدة اواجه ما علمتنيه انت.. لا تتركني وحيدة اشتعل .. (تستحيل كلماتها صراخاً مبحوحاً) شعري يشتعل اين ... ذراعك ؟؟ اين انت ؟.

ذراع واحدة تحمل كلمة واحدة تكفيني .. تحت الماء ، الى القاع . تغطسني بها جزيرة جزيرة .. جزيرة جزيرة .. **(صرخة ألم مرير Anguish طويلة متقطعة ، صرخة إمرأة تعذب عذاباً وحشياً لا حد لفظاعته) آه .. (ثم عبارة هادئة موضوعية جامدة كأنها لم تكن قبل ثوان تموت عذاباً) : يا للخيانة .**

(يسمع صوت انتحابه)

ص — يا للخيانة

ن — ...

ص — تخون نفسك .. تهرب من كلماتك في فمي ... وتتركني وحيدة اموت من اجلها .

ن — ...

ص — يا للخيانة .

ن — ...

ص — تمارس تخديرك خلسة تحت جلدي .. وتترك القروح تتفتح خلف اظافر انسلالك ..

ن — ...

ص — يا للخيانة .. لقد آمنت بالاشياء التي كنت تقولها لي ودون ان ادري انك لم تكن تؤمن بها انت نفسك. واليوم تدفع بي الى الانتحار لانك تكاد تصدقها وانت تراني احياها. انك لا تجرؤ على قتلي ، تريد مني ان انتحر .. لا تستطيع ان تقتلني لانك رغم كل شيء تحب كلماتك على فمي حتى وانت تظنها زائفة .. وتخشاها حينما تكتشف لحظة بعد لحظة انها ليست زائفة ، وانها ليست فخاً لي وحدي ، انها فخ لكلينا معاً .

ن — ...

ص — يا للخيانة .. «كلينا معا» لم تخطر لالوهيتك. كلينا معاً لن ننجو .. كلينا معاً سنلتقي بالطوفان. كلينا معاً لا نعرف ما هو .. ما هو هذا الشيء المشترك الموجود اللاموجود .. هذا الرعب المنتظر ، الفرح المنتظر ، الصحو المنتظر ، الاستغراق المنتظر ... اللذة الرعب الجوع اللاشيء.

ن — ...

ص — ربما كانت الهدية منه .. (يلين صوتها) هدية عرسنا منه (بحزم) سوف اكشف الستارة .. يجب ان يكشف احدنا الستارة ..

ن — ...

ص — ربما كانت العجلات خلف الستارة .. ربما نستطيع ان نرحل حينما ينتهي عيسى من تصليح السيارة .. دعنا نكشف الستارة .. ربما كان زر النور خلفها ، فنطفىء هذا الوهج اللعين ونستمتع بروية اللوحة ووسائدنا الناعمة واغطيتنا الملونة .. ان نظارتي تؤلمني كثيراً ، لم اعد احتمل النور ..

ن — ...

ص — (بلهفة) هل تستطيع ان تتحسس طريقك في النور نحو الستارة ؟

ن ـ لا ادري
ص ـ هل تجرؤ ؟
ن ـ ربما
ص ـ تجرؤ على ماذا ؟
ن ـ لا ادري
ص ـ على ان تعيدني الى اذرعك وصدرك واجسادك ؟.
ن ـ لا ادري
ص ـ لم اعد جائعة ولا خائفة .. صرت جوعاً خائفاً .
ن ـ ...
ص ـ هل تجرؤ ؟
ن ـ ربما ...
ص ـ تجرؤ على ماذا ؟.
ن ـ لا ادري ..

ص ـ وانا ايضاً لا ادري .. لا يهمني ان ادري .. (فجأة وفي شبه صراخ) ولكنني احببت صدرك مرة ... (تعلو الموسيقى بينما هي تردد بصوت غريب عميق لا تفاهة فيه) ولكنني احببتك مرة ، ولكنني احببتك مرة ، وبصدق ، وعرفت ذلك ذات مرة .

(نسمع صوت جسده يتحرك .. ضوء خافت جداً جداً بحيث يكفي لنرى أن شبحاً وقف منتصباً كعمود) ولكنني أحببتك ذات مرة ..

(ينتصب الشبح ويظل واقفاً جامداً في منتصف المسرح أمام المنصة)
احببت صدرك مرة ... وبصدق .. وعرفت ذلك ذات مرة .. ربما كان ذلك ما اخافك .. ان نتوقف عن العبث . لقد احببتك ذات مرة .

(الشبح يتحرك ببطء على المسرح ونراه يتجه نحو داخل المسرح ، تزداد الإضاءة بما يكفي لنرى تحركه نحو الجدار الداخلي للمسرح المقابل للجمهور .

ص (تتابع بصوت ثابت خافت مؤثر) قتلت سلامك لما عرفت انني كنت صادقة .. قتلت هربك.. شللت مراكز التخدير فيك .. وأنا اردد كلماتك أنت ، بصدقي عرفت انك كنت صادقاً ..

(الشبح يتوقف عند الجدار بلا حركة والموسيقى تموت تماماً) .

لذا تدفع بي الى الانتحار . كي لا ترى من انت وما انت .. كلماتك في فمي ، وانسلالك المخدر تحت جلدي ، ان جسدي وصدقي ينتصبان في طريق هربك .

(نسمع صوت كشف ستارة بينما تضاء أنوار باهتة دفعة واحدة وصرخة فظيعة مشتركة ثم صمت مطبق إلا من قرعات طبل مستمرة رتيبة .. (ضربة في كل ثانية) وعلى المسرح يشاهد النظارة الغرفة في شيء من الصعوبة . خلف الستارة المكشوفة لا يوجد شيء سوى مرآة ضخمة زاويتها مع الأرض منفرجة بحيث لا يُرى من النظارة فيها شيء والأنوار مسلطة عليها بطريقة تبهر الأعين فلا يستطيع النظارة رؤية حتى صور ما يدور على المسرح معكوسة فيها .

المنصة التي كان الشبحان ممددين عليها ليست سوى تابوت كبير عليه نقوش أثرية غريبة ولا توجد أية وسائد مخملية ولا أغطية حريرية والغرفة فارغة تماماً إلا من التابوت ، وعلى الجدار إلى يمين النظارة إطار لوحة فارغ إلا من عدسة مكبرة بعيدة عن الحائط قليلا بما يكفي لتكبير المرئيات ، وفي الجدار الأسود شرخ أبيض خفيف يستحيل عريضاً وعميقاً ضمن إطار اللوحة الفارغ وأن في إطار اللوحة الفارغ عدسة مكبرة تكبر الشرخ تحت سطحها . في الجدار الآخر

الأبيض — إلى يسار النظارة ويمين المرآة لاتوجد أية نافذة أو كوة ، ولا أثر للنافذة التي كانا يتحدثان من خلالها إلى عيسى أو محمد .

نرى نوح واقفاً أمام بقايا الستارة المكشوفة عن المرآة وظهره للنظارة . إنه يشبه تمثالاً ضئيلاً ، لا أذرع له ويرتدي عباءة رمادية فلا يبدو منه سوى رأس مغروس على اسطوانة ، العباءة منشاة وتمس الأرض فلا تبدو حتى قدماه وعليه أن يسير ببطء شديد حينما يتحرك بحيث يبدو مجرد رأس مقطوع شبه عائم في الفضاء يتحرك على حامل ..

« الصوت الحاد » لا نراها . من صوتها ندرك أنها ما زالت في مكانها مرمية على الأرض خلف التابوت الكبير ، وهكذا فان النظارة لا يرونها مطلقاً . إنها صوت بلا جسد ، وعلى الممثلة أن تسقط خلف التابوت بحيث يحجبها تماماً من جميع زوايا النظارة .

بعد الصرخة المشتركة ، ثم لحظة الصمت ، نسمع صوت نوح دون أن نرى وجهه ، فرأسه مكسو بشعر غزير يخفي رقبته تماماً بينما ظهره موجه لنا .

ن — يا غبية .. يا انا ..

ص — لماذا اطفأت الانوار كلها (بصوت محتضر) اريد ان ارى الهدية ...

ن — ياغبية .. يا انا ..

ص — اين انت ؟

ن — (ذاهلاً) يا للخيانة ..

ص — لماذا اطفأت الانوار كلها ..

ن — يا للخيانة .. ترحلين .. هل انتهى دورك في اللعبة وجاء دوري ؟ (**مقلداً صوتها**): نوح .. اقترب مني .. دعنا نتمتع بهدية العرس ..

(يتحرك ببطء نحو التابوت) لماذا لم تكوني غبية (بمرارة يكرر) فنستمتع (بحرقة) لماذا لم تكوني غبية ...

ص — ...

ن — يا للخيانة .. اذ كنت صادقة . خنت كذبنا ..

ص — نوح .. انك تتحدث من جديد . ولكنني لا افهم ما تقول .

ن — يا للفجيعة ..

ص — نوح ... هل وجدت اللغة خلف الستارة ؟..

ن — يا للرعب .. شيء فظيع ان ارى وجهي .. (يخاطب المرآة) يا هدية الطوفان . اي منفى اشمئزاز ..

ص — (تناديه بمرارة) نوح . تعال .. اين اذرعك . لست جائعة ولا خائفة ، ولم تبق ستارة ، ولم يعد هنالك ما يحجبه النور .. نوح .. تعال .. الطوفـــان ..

(بينما يدير وجهه عن المرآة نحو النظارة ، نكشف ان لا وجه له ، فوجهه أيضاً كظهره مكسو بشعر أسود كثيف حتى رقبته مختفية تحت شعر كثيف والصوت يخرج من خلال الشعر. حينما يصل التابوت يختفي عن النظارة نصف جسمه . نسمعه يردد) ربما كان ذلك بالضبط هو الطوفان .

ص — ماذا تقول ؟.

ن — لا ادري ..

ص — هل تعني ما تقول ؟.

ن — ربمــا ..

ص — تمدد الى جانبي ولف اذرعك حولي .

ن — لمـــاذا ؟.

ص — لا ادري .. الا تريد ذلك ؟..

ن – بلى .. ولكنني لا استطيع ..
ص – لماذا ؟. **(يختفي معها تماماً خلف التابوت)**
ن – الطوفان ...
ص – لمــاذا ؟..

ن – المرآة ؟... (برعب لا حد له) المرآة ... نحن .. أهذا كــل شيء ؟ ...

ص – ماذا قلت ؟...
ن – لا ادري ...
ص – هل قلت الطوفان ام المرآة ؟...
ن – لا ادري ..
ص – هل قلت الطوفان
ن – ربمــا
ص – هل قلت المرآة ؟...
ن – ربمــا
ص – لمــاذا ؟
ن – خيانة ... خيانة ان تهربي .. انظري الينا ، الى المرآة ..
ص – قبلني
ن – لا استطيع ... المرآة ... أية اكذوبة ... اهذا كل شيء ؟..
ص – لماذا .. قبلني الآن .. قبلني ..
ن – اريد ان اتقيأ
ص – لمــاذا
ن – المــرآة ...
ص – ومن سوانا في المرآة ...

ن – انظري اليهما .. شيء فظيع ..
ص – لماذا انظر ؟؟... ما معنى « انظر » اليوم عندك ؟..
ن – يا للخيانة ..
ص – قبلني
ن – لا استطيع
ص – لمـــاذا
ن – المرآة .. المرآة ..... انظري اليهما ...
ص – لم اعد اسمع صوتك ... ماذا قلت ..
ن – المـــرآة ...
ص (صارخة) – هل قلت الطوفان ؟..
ن (صارخاً) – ماذا تقولين ؟ لم اعد اسمع صوتك ؟..:
ص (صارخة) – هل قلت المرآة ؟..

(هنا يستحيل الحوار صراخاً ، صراخ إنسانين لا يرى أحدهما الآخر ولا يسمع أحدهما الآخر ، ولا يحس أحدهما بوجود الآخر ، يشتد قرع الطبل وتنضم إليه طبول أخرى من جميع زوايا المسرح وتسمع قرقعة تدحرج نوح « والصوت الحاد » إلى يمين المسرح ومن ثمة أمام التابوت وأمام النظارة جميعاً . نرى « الصوت الحاد » جسد أخطبوط كبير من الأذرع السود الملتفة حول نوح الاسطوانة ، رأسه في ناحية ورأس المرأة الاخطبوط في ناحية أخرى وهي أيضاً بلا وجه لكن رأسها ذو شعر طويل غزير أشقر جميل جداً وبلاتيني اللمعان) .

ص – نوح ... اين انت .. لماذا لا تقترب قليلاً لاسمع صوتك ...
ن – المرآة .. المرآة ... اين انت .. هل كنت تتحدثين عن شيء اسمــه المرآة ؟.... هل تسمعيني ..

(يشتد تماسكهما ويشتد التفافها حوله ويضيع بعض شعرها ورأسها خلف

أسطوانته ويكاد رأسه يغيب تحت أذرع الاخطبوط وأحياناً تختلط صرخاتهما فيتحدثان في وقت واحد ما دام أحدهما لا يسمع الآخر) .

تخفت الأنوار تدريجياً .

ص — نوح ... متى نرحل ... هل رحلت وحدك وتركتني ..

ن — المرآة ... ما معنى هذه الكلمة ... لقد نسيت تماماً ... اين انت .. هل تسمعينني .. هل تذكرين شيئاً عن ستارة ما ..

ص — نوح ... هل هربت من النافذة .. ما اسم ذلك المصلوب تحت .. تحت شيء ما .. لا اذكر بالضبط ... لا ادري ...

ن — ما اسمك ... هل تسمعينني .. هل كان اسمك الطوفان ..

ص — نوح ... من نوح ؟.. ربما كان اسمي نوح .. ما معنى « اسمي ».. هل ؟.. ربما .. لا ادري ..

ن — هل كان اسمك الطوفان ؟... اسم من ؟.. ما « الطوفان » .. هل هـذا صوتي ... ما معنى « صوتي » ؟. هل ؟.. ربما .. لا ادري ...

(تخفت الأنوار تماماً وتعود الظلمة تغرق المكان . ضربات الطبل وحشية . تمتزج مع قهقهاتهما ، ويعود اللحن الأول يغمر المسرح وهذا بينما هما يتدحرجان من جديد كتلة واحدة إلى خلف التابوت . يتسلقانه . ومن جديد يعود المسرح إلى ما كان عليه في ابتداء المسرحية ... تعود الهمهمات) ...

ن — ما اسمك ؟..

ص — لا ادري ...

ن — اذكر انني سمعت صوتك

ص — ربمـــا

ن ــ لماذا انت غبية ؟..
ص ــ لا ادري ..
ن ــ كي نستمتع ؟..
ص ــ ربمــا ..
ن ــ كي لا نفترق ؟..
ص ــ ربمــا ...
ن ــ ما هدية عرسك ؟ ستارة ؟.
ص ــ لا ادري
ن ــ اذكر انني سمعت صوتك قبلاً ...
ص ــ ربمــا

ن ــ ربما كنت احلم ... اي كابوس .. كان لها صوتك .. كانت شيئاً فظيعاً .. الآن اذكر .. كانت هنالك رحلة ، وستائر وتوابيت وسيارات ..

ص (مقاطعة) ــ أحب السيارات
ن ــ وكانت تصدق كل ما اقول ..
ص ــ لا افهم شيئاً مما تقول ..

ن ــ هذا رائع ... هذا مريح ... اذن حتى ولو قلت لن تكشف الستارة .. (**صوت التنهدات الحارة**)

(يهمس بمرارة عجيبة) : ولكن هذه المرة ، لن يكون هنالك أي طوفــان .

ليل الغرباء

كل شيء يتغير ،
ويتساقط الواحد منا تلو الآخر ...

الشاعر ييتس

* كان من المفترض ان تنشر هـــذه القصة في كتابي « ليـــل الغرباء » المسمى باسمها والصادر في ٦ /٦ /٦٦ ولكنني ارغمت على سحبها يومئذ من المطبعة « لأسباب شخصية » ، وبقيت المجموعة تحمل اسمها !

٢٤ – ٢ – ٦٤

ليل الغرباء

بيروت .. ورأسي كرة أعصاب متوترة ... وضجيج المقهى .. وصديق عيناه بئرا سخرية .. وأنا افترس احلامي في هذه المدينة الممزقة بغباء وحش يلتهم اطفاله .. وعيناه بئرا سخرية.. وبيروت ألوكها بين اجفاني .. تنزلق على عيني كتل من الشعر الملصق وصحون مملوءة بأعقاب قصص وسجائر مستنفدة وضحكات واضواء اعلانات وملل وملل.. وكل شيء بلا جذور ، كأن الابنية تعوم فوق الشاطىء الرملي اللزج .. والعواطف لزجة .. والاحاديث عن الله والفن والوجود لزجة .. وأنا مجزرة صمت .. والزيف ، وكل ما نقوله عن أنفسنا وعن الآخرين نحس بأنه مزيف بطريقة ما .. وصمتنا جزيرة الاصالة الوحيدة التي نستطيع ان نهرب اليها .. وعيناه بئرا سخرية ..

قبل لحظات قدمه صديق إليَّ.. لم أكن بحاجة الى التطلع في وجهه .. كنت أعرفه جيداً كما يعرف سكارى آخر الليل بعضهم البعض الآخر .. كنت قد قرأت له . كان مثلي ، وان كان يتمرد سخرية وأنا اتمرد مرحاً

وصخباً .. أما الليلة فكنت متعبةمتعبة ، وحيدة في ليل الغرباء .. قبل ان اخرج من الصف الى هذا المقهى كنت أتأمل استاذنا الكبير وهو يتحدث ويتحدث وسحابة جراد تتناثر من فمه .. وبمرارة أتساءل : ما جدوى هذا كله ... ؟

والآن ، وأنا هنا ، اتلفت وأبحث وأغص . ما الذي جاء بي الى هنا ؟.. حتام تحملني تلك الموجة الرعناء تقذفني من مدينة الى أخرى ، تجرني ، تجرحني على اسفلت شوارع حزينة فارغة في ليال ماطرة .. يضحكون بصوت عال ليؤكدوا لانفسهم انهم يضحكون حقاً .. وعيناه بثرا سخرية. في تماسكنا كبرياء الخيبة وتمرد الضياع على ان يكون عدماً .. فنحن الصرخة الاخيرة لجيل لا ندري ان كان يولد أم يحتضر .. لقد وصلنا نهاية الطريق قبل الأوان وأطللنا على الهاوية . عبثاً نحول انظارنا عنها..

يتحدثون .. يتناقشون .. لقد اعتادوا شرودي.. على المنضدة المجاورة شاب يغسل فتاته بدفء نظراته ويشد على يدها فتشع ضياء وشرراً وحباً .. جلست ذات يوم مثلهما وانتهى الامر .. كم يبدو منظرهما مؤلماً .. حتى الحب الذي كان خلاصاً صار حبر دواة يسكبونها لصبغ حذاء .. أيها الحب الذي رحل بعيداً مع البراءة .. أيها الحب ليتك تعود ، ليتني اعرفك من جديد .. تنغرس في قلبي ولو ابرة حديدية تنفث السم .. ليتك تتغلغل في عروقي ولو خدراً كالموت.. ليتك تحتويني حناناً طاعوناً زلزالاً . أي شيء. يتظاهر بأنه يهمس في أذنها ويسترق قبلة منها . ارخي الستار على مسرحهما وأعود الى الغريب .. والى عينيه وبثري السخرية.

وضاح ورياض ومارينا ينسحبون . أنا لا أرغب في الذهاب معهم . هو ايضاً يقول انه لا يحب السينما . يخرجون بعد موجة من الضحك العنيف المفتعل...

وحدنا .. أنا والغريب .. أتأمله . وجهه مدينة حنان حجرها بركان خمد . على شفتيه صرخة ميتة لكابوس ماصق فوق عينيه .. ورأسي كتلة أعصاب متوترة . أعيش انتظاراً دائماً مفجعاً لما لن يكون . لا أملك في الدنيا إلاّ قلماً يجر نفسه على الورق راسماً خطا لنزفٍ خفي في أعماقي ..

— أنا رجل من خشب..

— أي خشب ؟.. خشب مركب هرم يطفو في سكينة مستنقع ؟..

— وهل هنالك خشب آخر؟..

— هنالك خشب الاشجار العاري الذي احرقه صقيع شتاء ما.. انه يبدو لمن يراه ميتاً. لكن النسغ في داخله يجري بحيوية شارع مزدحم بالمرور والحركة والحياة .. حتّى اذا ما التقى بربيعه فاجأ من حوله بازدهار خضرته وتفجر الحياة من براعمه..

عيناه ما تزالان بثري سخرية.. يخيل اليّ ان عتمتهما ازدادت اكفهراراً .. انني اضايقه لانني مثله .. لانه لا يستطيع ان يسخر مني.. كل منا جثة فاغرة العينين تحدق في صاحبها..

— انك تحول اية مائدة تجلس اليها الى ساحة معركة .. ترمي الى أية فتاة تجالسها بقطعة قماش حمراء وتطلب النزال..

— هذا صحيح .. انك خبيثة..

— لا .. لست خبيثة .. انني مصارعة متقاعدة انسحبت الى صفوف المتفرجين .. انني اخسر متعة الحياة داخل الاشياء ولكنني اربح القدرة على رؤيتها من بعيد بوضوح اكثر..

— المرأة الذكية شيء مزعج حقاً..

— فعلاً .. انها كالصبار الذي يستعصي على التقشير ولا يمكن ان يؤكل مع قشره . انها تخسر متعة ان تؤكل.

وتتحول عيناه عني .. يراقب من حولنا كأنهم ولدوا للتو ولم يرهم من قبل .. العاشقان ينهضان ويخرجان . يد كل منهما تضم يد الآخر .. أشفق عليهما من الخيبة التي ستطل ذات يوم فجأة كرصاصة اطلقها مجهول ..

شاب ما يزال يلاحقني بنظرات لفتت انتباه الجميع ..

— هذا الشاب المسكين ، لقد خدعه مظهري .. انه لا يدري انني عجوز متنكرة في جسد امرأة شابة..

— هذه ضريبة الجمال يجب ان تدفعيها.

— كذبك لذيذ حقاً .. لو عرفتك أيام كنت شابة لأحببتك ..

— ولكنك في العشرين من عمرك.

— لو عرفتك ايام كنت شابة لاحببتك.

اسمع صوتي وأنا اقول ذلك . تمزقني المرارة التي تنبعث منه.. أيام كنت شابة ... كان ذلك منذ زمن بعيد بعيد .. ان دهوراً من صحاري الخيبة تفصل بيني وبينها ، أجيالاً من الاحزان.. لم يتبق اليوم شيء .. اواه .. لا شيء سوى ان اكتب . لا شيء سوى هذا الانتحار الممتع البطيء .

— ولكنك ما تزالين شابة .. انك تكتبين ، هذا يعني انك لم تسدي بالطين نوافذك .. ما زلت تتبادلين الاشارات مع العالم حولك مهما كنت نائية ؟؟. والا فلماذا تكتبين؟؟.

– لماذا أكتب ؟؟. منذ عامين حين بدأت انشر ما أكتب كنت مؤمنة بأن لي قضية .. بأن هنالك شيئاً أحب ان اقوله. بأنني اريد اعادة تشكيل العالم في عيني .. اريد ابلاغ رسالة ، برقية .. انها المرحلة التي تتحدث عنها ، وقد تجاوزتها ..

في صحراء وجنتيه ينبت ظل حنان رائع ينطفيء بينما يقول : لماذا تكتبين اذن ؟ انك شرسة في مجالك . انك لا تكفين لحظة عن اثبات وجودك..

– لماذا اكتب ؟.. الآن وأنا في بيروت بعيدة عن ابي الذي احب ، أجدني مضطرة لان اطرح على نفسي هذا السؤال : لماذا اكتب؟؟. لماذا استمر في الدراسة ؟؟. ماذا اريد ؟. ويوماً بعد يوم يزداد احساسي بغباء كل ما نقوله ، بعبث كل ما نفعله ، بسخف كل مسرحية تقدم بعد رفع الستار وباصالة المسرحية التي تجري خلف الكواليس، وأحس برغبة في ان أصمت .. كلما ازدادت رغبتنا بالصدق كلما بدأنا نرفض ان نقول او نكتب.

– ماذا تعنين؟.

– أعني ان جمرات الحماسة قد انطفأت على شفتي ، ولم تبق الا رغبة دامعة في قول الحقيقة .. والحقيقة خرساء ، الصمت اغنيتها الوحيدة لذا لم يعد لدي أي محرك يدفعني للكتابة .. ان تلك الهوة القائمة بين الفكر واللغة تدمر أعصابي .. بين الفكرة في أعماقي وبين الفكرة نفسها بعد ان ترتدي اهاب اللغة .. الاخلاص الوحيد الذي تبقى هو ان أخلص للصمت لصمت الحقيقة ..

– ولكنك لن تتوقفي عن الكتابة ، بل انك ستزدادين شراسة ووحشية في النتاج . واذا كففت لفترة فستعودين وانت أشد شراسة ..

— لمـــاذا ؟؟..

وتتقد عيناه حناناً رائعاً وهو يقول : لانه لم يحدث ان كف مدمن عن تناول افيونه اكثر من ستة اشهر ..

كلماته تحرك السكين المغروسة في اعماقي فازداد ايماناً بوجوده حقاً .. صارت الكتابة افيوني .. صارت مأساة بعد ان كانت خلاصاً .. صارت سيدآً ، الهاً ، وانا مجرد قلم ينزف عمره على الورق ..

لماذا نكتب انا وانت ؟.. لنتخدّر .. لاننا آمنا بأن اسطورة الصعود انتهت .. لاننا نصعد ابداً سلماً متحركاً يهبط نحو الاسفل ... لكنه افيوننا.. سفينة فضائنا الى كوكب هربنا...

واحس بأنني قريبة منه .. وجهي ملصق بوجهه ونحن نقف في ليلة باردة أمام مزارٍ ناءٍ غسلته الامطار .. يدي في يده ، ونظراتنا مسمرة الى شمعة ذابلة لهبتها حروف تراقص بانكسار عجيب. والشمعـــة سوف تنطفىء . والريح سوف تشتد .. والمزار سوف يتهدم.. ولن يبقى سوانا مع الليل وعواء الغربة .. ولكننا لن نجروٌ على العناق فنحن من جيل اغتال اساطيره كلها بما فيها الحب .. لن نجروٌ على العناق لاننا نخشى ان نبدو على حقيقتنا فنتحول الى هيكلين عظميين يضم كل منهما صاحبه .

يوقظني صوته : ما هو برنامجك الليلة ؟

— انا امرأة بلا برامج .. انني طاحونة هواء اسلمت اذرعها للريح

— والريح في بيروت لا تحمل إلاّ رائحة اللحم والنقـــود وتجار الافكار .. انني لا اجد في هذه المدينة مكاناً ارتاح اليه ..

— لماذا نتهم بيروت ؟.. نحن المرضى ، نحن العائمين على شلال الزمن ،

لقد اضعنا زماننا ومكاننا .. اننا لا ندري الى اي قرن نتتمي .. الى جيل كان ام سيكون..

ــ قد تكونين على حق..

ــ على اية حال ، لدي فكرة.

ــ ما هي ؟ سننفذها حالاً..

الحماسة التي تتدفق من عبارته تهيج في عروقي موجة شباب مفاجئة...

قلت له : هنالك مكان في بيروت يشبهنا .. مكان رائع حقاً اكتشفته منذ اسابيع .. سنذهب اليه .. وهنالك انسان رائع اسمه العم جــاك سأقدمه اليك ..

ــ من هما ؟. المكان ، والعم جاك ؟.

ــ انهما شيء واحد .. مقهى اسمه « الغجر». باب صدىء ولا طلاء لجدرانه ، فهي مغطاة بكلمات ورسوم عفوية .. تشبه وجهاً حياً تغطيه الضحكات والشهقات وآمال وخيبات ضيوف المكان .. وهنالك موقد يعد فيه كل طعامه بنفسه والمكان صغير ودافىء والوجوه صافية شرسة الاحزان ورائحة النبيذ والحطب المحترق تنبعث من كل شيء ... اما العم جاك فهو الذي علق القناديل العتيقة الملونة ، وهو الذي يستقبلك عند المدخل بوجهه الذي يشبه وجه قرصان متقاعد ، ويسألك عن احوالك بحنان كأنك عائد الى بيتك بعد سفر طويل في بحر الاحزان . وقبل ان تخرج تقدر بنفسك ثمن ما اكلت وشربت وتدفع الى جيبه بالنقود دون ان يحصيها او يسألك عنها .. وقد لا تدفع له شيئاً ذات يوم فلا يسألك، كما قد تدفع اكثر مما يستحق . هنالك توازن دائم عفوي يجري في عتمة جيبه قوامه صفاء زبائنه وصدقهم غير الالزامي ..

ـ فلنذهب ..

قالها ونحن نخرج من المقهى المجاور للجامعة .

في سيارته الصغيرة اجلس . ارقب جانب وجهه في الظلمة. اتمنى لو لم يكن رائعاً هكذا .. تفاهمنا السريع يعطي مأساتنا حدتها ومذاقهـا المر .. كم هو مفجع ان نفقد القدرة على ان نحب .. تراه مثلي ؟.. لقد وجدت في الصناديق التي سبق وتلهفت على فتحها جثثاً مشوهة ، لم تعد لي القدرة على فتح صندوق جديد . لم تعد لي القدرة على مواجهة اخفاق جـديد .

ـ انحرف الى اليمين .

ـ لست يمينياً

ـ سر في خط مستقيم ولو ان ذلك صعب بالنسبة اليك كصحفي ! يضحكان .. هو والطفلة التي كنتها ذات يوم قبل ان تتحنط أعماقي ويغمرها الصقيع .. يستيقظ حقد مشلول في صدري ، احسني نمرة . اود لو اغرس اظافري في طرف وجهه لاعري عظام خديه وجبهته .. كي تبرز العظام صفراء ساخرة باردة على حقيقتها ..

ـ اجل .. هنا .. لقد وصلنا .. ولكن .. كأننا اخطأنا المكان .. انه هو ، وليس هو..

ـ ماذا تعنين ؟.

ببطء شديد يهمس وهو يتأمل المكان الذي وقفنا امامه. يتأمل الباب المصقول الفاخر والاضواء الملونة التي تزين المدخل كسرب رخيص من الراقصات ..

– هل انت واثقة من ان هذا المكان هو نفسه الذي سبق وجئت اليه ؟.

– انه المكان نفسه ، لكنه تغير بطريقة ما . لا ادري ماذا حدث .. دعنا ندخل ..

جنباً الى جنب نسير . احس بأنني اكاد اختبىء في صدره ، وبأنه يحميني ويحتمي بي وهو يشدني اليه .. كأننا سنواجه معاً كارثة مشتركة ، لكننا نسير ومسافة خطوة او اكثر تفصلنا .. حلقي مغارة تنز دماً بينما ارى ما حدث .. وبنظرة واحدة افهم كل شيء . لقد انضم المكان الى قطيع مطاعم بيروت .. لقد اعيد طلاء الجدران ودفنت الضحكات والشهقات والاماني التي كانت تغطيه .. والمناضد الخشبية اتخذت لها اردية جديدة.. ورائحة الحطب والنبيذ استحالت الى رائحة غاز خافتة تذكر بوجوه مصفرة الزرقة لرجال اعمال صلع يناقشون مشروعاً ما .. والموقد الاليف اختفى.. لا ريب في ان غرفة جديدة مزودة بأحدث الآلات وامهر العمال قد ألحقت بالمكان .. نظرة واحدة الى الموائد تكشف لي ان الزبائن صاروا من النوع الذي يتحدث بالشوكة والسكين..

الى صديقي التفت . علي ان اعتذر . اغرق في عينيه بثري السخرية .. ادمدم : لعل العم جاك قد مات ف..

ارى جاك قبل ان اتم عبارتي . لم يعد قرصاناً تائباً ، صار قرصاناً عصرياً ، يرتدي ياقة منشاة ويفخر بنظارته المذهبة التي تمتطي انفه ، انه غارق وراء منضدة فخمة عليها آلة حاسبة للارباح .. تصطدم بي فتاة . التفت . فتاة شقراء تحمل صينية عليها اطباق فاخرة .. انها (جرسون) جديد . خادمة في محراب إله المدينة الذي هيمن على كل خلية واستولى عليها كسرطان لا مفر من لعنته .. شاب يرمقنا بنظرة متحدية . لقد اطلنا

الوقوف . علينا ان نختار منضدة نجلس اليها. تتنحى عن طريقه . يتقدم من العم جاك ويدفع حسابه . اتأمله وهو يحصي النقود بحرص . إله المدينة يسود .. واحة الغجر اسطورة ، ونحن قد اخترنا إلهاً مهزوماً لا محراب له سوى الشوارع الباردة الخالية الا من المطر وصوت الريح وبائعة البنفسج العجوز بعد منتصف الليل ..

تتقدم فتاة اخرى منا .. تفضلا .. الابتسامة المنشاة نفسها . ودون ان اجيب على كلامها ، او على تحية العم جاك اجد نفسي متجهة نحو الباب ... ودون ان التفت اعرف انه يسير ورائي .

اسمعه يصفق الباب خلفنا ، ولا التفت . امارس التنفس بلذة ، الهـــواء البارد المنعش رغم وخزه لانه نقي .. نسير كرمزين مشوهين هرباً من لوحة تجريدية رمادية.

ورغم كل شيء لا يجرؤ على ان يمسك بيدي .. ولا اجرؤ على ان اتمنى لو انه يخفيني في صدره .

بعد ان نعود الى سيارته ، ونسير مسافة طويلة جداً اسمعه يسألني : الى اين ؟..

— الى حيث اجلس واكتب .. اني بحاجة الى افيوني .

— وانا بحاجة الى لفافة من التبغ محشوة بتراب النجوم !...

آخر قصّة غير بيضاء

خلال نومك ، يأتي الألم الذي تعجز
عن نسيانه ليهطل قطرة فقطرة فوق القلب ،
حتى تأتيك الحكمة – رغماً عن ارادتك –
عبر يأسك .

اسخيلوس

بدأت أنساك ... انني ارتجف لكوني
نسيت ذلك الحب كله .

مارغريت دورا

* نشرت للمرة الأولى بعنوان « القصة البيضاء »

٢٠ — ٤ — ١٩٦٤

آخر قصة غير بيضاء

السيد

رئيس التحرير المحترم ،

اعتذر عن الاستمرار في تقديم صفحتي الاسبوعية في مجلتكم ، تحت عنوان «كلمات حزينة» . لاسباب خاصة جداً ، يصعب علي شرحها ، واذا كان لا بد من ان اكتب ، فليكن عنوان صفحتي «كلمات بيض» .

باحترام كبير
غالية احمد

ولما انتهت من التوقيع باسمها ، لم تودع الرسالة مغلفاً ، لأنها لم تكن تكتب على الورق ، وإنما على الجبس الابيض الذي يلف ساقها .

تتأمل اسمها وتعيد كتابته مرات ومرات ... غالية احمد ، غالية احمد ... هذا الاسم الذي رأته مئات المرات ، مطبوعاً في صحف مختلفة ، تحسه غريباً عنها بطريقة ما ... ولكنه جزء من اسطورة عذابها ، جزء من انكسارها وانتصارها ، جزء تعطف عليه ، تماماً كما تعطف على ساقها المدفونة في الجبس الابيض منذ اسابيع .

تتناول عن المنضدة الى جانبها احدى الصحف المكدسة . هنالك صورة ضاحكة لها ، وخبر عن تدهور سيارتها على طريق المطار واصابتها بكسر في ساقها . تتأمل الصورة .

يدهشها انها تستطيع ان تضحك هكذا ... وهذا الرصيد الضخم من الاحزان في اعماقها ... لو يعرفون !

وتلك الليلة الرهيبة ، كيف نجت من الموت ؟ ووجهه ، كيف اطل في تلك الليلة بعد ثلاثة اعوام ؟! وعوالم الخيبة والكراهية والجرح الحاقد ، كيف تفجرت في لحظة واحدة ؟

كل شيء يبدو الآن نائياً وشاحباً كذكرى باهتة .

فجأة يفتح الباب . المرأة التي تدخل مديدة القامة ، في تقاطيعها آثار جمال غابر وحزن يذكر بأميرات حكايا القرون الوسطى ، ولها طريقة خاصة في النظر الى الناس ، كأن الرؤوس امامها ، والاشياء ، شفافة تنفذ بنظراتها خلالها .

ــ متى استيقظت ؟

ــ منذ دقائق . أيقظتني الشمس لما سقطت اشعتها على وجهي .

ــ انها منذ الصباح الباكر هكذا ... تصحو ثم تمطر ..

ــ هكذا طقس بيروت . وقد تعوّدت تقلبه .

ــ تبدو الراحة على وجهك . هل نمت الليلة جيداً ؟

ــ نعم ! انا بألف خير .

ــ يسرني ذلك . لن يجدك والدك متعبة حينما يحضر .

ــ والدي ؟ يحضر ؟ هل عاد من السفر ؟

– عاد واتصل بي هاتفياً من دمشق. كنتِ نائمة ولم ارغب في مضايقتك

– هذا رائع . اني بشوق اليه . ارجو ألا يكون قد انزعج حينما علم بالخبر .

– قال انه سيستأذن الطبيب في امر نقلك الى البيت في دمشق ريثما تشفين .

وكأنما احست انها بدت انانية اكثر مما يجب ، واذا بها تسأل بعذوبة :

– عمّتي ، منذ متى لم يزرك والدي ؟

– منذ تزوجت المرحوم . زارني مرة واحدة بعد وفاة زوجي ، وسألني فيما اذا كنت بحاجة الى المال ؛ ثم طلب مني الكف عن مهنتي هذه .

كانت تعرف ذلك ، كما كانت تعرف جواب السؤال الذي وجدت نفسها تطرحه :

– وماذا يضايقه في مهنتك هذه ؟

– قال لي يومئذ انها لا تليق باسم اسرتنا . وطلب مني العودة الى دمشق والحياة معكما .

– ورفضت طبعاً .

– انها ليست مجرد مهنة بالنسبة الي . انها جزء من حياتي .

– استطيع ان افهمك . انها كالكتابة بالنسبة الي .

غالية تجلس في فراشها . تمسك بيديها مسندي مقعد متحرك له عجلتان كبيرتان ، وتنتقل بالقسم الاعلى من جسدها ،وبساقها السليمة اليه ، بينما تهرع عمتها لمساعدتها ،وحمل ساقها المدفونة في الجبيرة البيضاء . تنفجر ضاحكة فجأة وتسألها :

– هل عدت الى الكتابة على الجبس ؟ ورسالـــة جديدة الى رئيس التحرير ! انك غريبة الاطوار .

وتتأمل غالية الجبس الذي صار مزدحماً بالكلمات والطلاسم ،وبحماسة تقـــول :

لقد جعلت كل من يزورني يوقع اسمه . وكتبت اكثر خواطري عليه . انظري هذه البقعة من الآهات . آه آه آه ... كتبتها ليلة اصبت بنوبة الالم اللعينة ولم انم . واشياء اخرى كثيرة . مجرد سطور متشابكة متلاحقة ، قد يطمس بعضها بعضاً . ويوم ينزعون الجبس عن قدمي ، سينزعون عني هذه الحكايا والاحاسيس كلها ، وسأبدأ من جديد ، كالافعى التي خلعت جلدهـــا .

– لكن الافعى تظل تلدغ مهما غيرت جلدها .

– لقد كنتُ أبداً افعى وديعة . ألدغ حينما يساء إليّ . وألدغ نفسي غالبـــاً !

تدفع بها عمتها في مقعدها المتحرك نحو الشرفة . الشمس مشرقة ، والغيوم المتفرقة تبشر بنوبة مطر جديدة .

– سأتركك هنا قليلاً لاعود الى عملي . اذا امطرت من جديد عودي الى الغرفة . المشكلة ان عدداً كبيراً من النسوة بانتظاري ، ولا استطيع المجيء للاطمئنان اليك في كل لحظة .

بامتنان حقيقي تهمس : « شكراً لك . أعطني كراستي وقلمي قبل ان تخرجي » .

تناولها القلم والكراسة وتقول :

ـ اذا احسست بالضيق تعالي إلي كعادتك . سوف تتسلين بمراقبة ما يحدث في الغرفة المعتمة لعمتك العرافة ...

انها وحدها من جديد : دافئة ومنعشة تطل الشمس ، ولكنها لا تثق بها ، لانها في اواخر شتاء بيروت تتصرف كغانية : تظهر ، وقبل ان يخلع الناس معاطفهم تختفي .

غالية تتأمل الحياة التي تتدفق في الشارع امامها بفضول شديد . عشرات السيارات المتزاحمة كجياع امام بائع الخبز ايام الحرب . باب مدرسة الاطفال المقابلة لدار عمتها يفتح . يتدفق سيل من الوجوه الفرحة باستعادة حريتها . كم كانت في ما مضى تكره تلك المخلوقات الوقحة الصغيرة المسماة بالاطفال ! لم يكن لها اي موضع او حساب في عالمها ، عالم التشرد ؛ كانوا يقفزون احيانا امام سيارتها المنطلقة بسرعة مجنونة ، وكانت تخشى أن تدهسهم كما تكره أن تدهس اية قطة او اي حيوان زاحف ... اما اليوم ، فهي ترقب ساعة خروجهم كل يوم لتتأمل تدفقهم البريء ، بحنان كبش مذبوح يتأمل قطيعاً من الحملان المعدة للذبح .

عشرات الاذرع المفتولة ، ما زالت تحمل الاحجار والاسمنت وتعلو فوق الهيكل العاري للدار التي تبنى امامها . والدار ايضاً ، ظلت ترقب نموها منذ اسابيع ، منذ تدهورت بها السيارة ، وتحولت من جنية مشرّدة الى عجلة ثالثة لمقعدها المتحرك ... لقد راقبت نموهـا حجراً حجراً ، والعضلات المتعبة تتحرك ولا تهدأ ، والعرق يتصبب . منذ زمن بعيد نسيت كيف يبدو الناس ، كيف يضحكون ، ويصرخون ، ويتألمون ، ويركضون الى اعمالهم ، ويتبللون حينما يهطل المطر عليهم .

ثلاثة أعوام ، لا ترى سوى وجهه وحقد عينيها على وجهه ... ثلاثة

أعوام نسيت خلالها ان الاطفال يبكون ، والرجال يهمهمون بحثاً عن رغيف وتعــويذة .

انها تمطر .

تتنفس بلذة كأنها خرجت للتوّ من كهف خانق .

تدير عجلات المقعد وتمضي نحو باب الغرفة الآخر .

تمد يدها لتفتحه .

لمـــاذا ؟

لا جديد ... تعرف انها سترى النسوة جالسات في غرفة الانتظار، حلقة واحدة ، كل منهن تنتظر ان يحين دورها ، كي تحمل قلق عينيها وتعب عينيها الى الغرفة المعتمة ، حيث عمتها العرافة ، وهناك تجلس امامها لمدة دقائق ثلاث ، وخلال هذه الدقائق تقع المعجزة : ان عمتها قادرة على قراءة ما يدور في خلد الآخرين ، قادرة على تعرية اذهانهم من الجلد واللحم والعظم ، والكشف عن شبكة الاعصاب النابضة المتشابكة ... هذه القدرة العجيبة ! لو انها تكشف سرها ، لتكون هي ايضاً عرّافة في فنها وادبها ، ليصبح اتصالها بعالم الآخرين وثيقاً ومباشراً .

لماذا تخرج وترقبها ؟ انها تعرف ما يجري .

كل ما تريده هو ان تعرف كيف يقع ذلك . سوف تسأل عمتها عن السر قبل ان ترحل مع ابيها .

ام ان عظمة السر تكمن في انه لا يمكن ان يباع او يوهب ، وعلى الانسان ان يبني جسره الى عالم الآخرين بنفسه، حجراً حجراً كهذا البناء الذي كان يكبر امامها يوماً بعد يوم ، كطفل صغير محبب ؟

تدير عجلات المقعد وتعود الى الشرفة .

المطر قد هدأ ، والغيوم عادت تتفرق وتتراكض في اقصى الافق المتقطع ببعض الابنية الشاهقة ؛ ترى ان قوس قزح ينبت وينبت ، وان الوانه الرائعة تزداد كثافة شيئاً فشيئاً ، وتزداد اتضاحاً . قوس قزح بألوانه الزاهية ازرق ، بنفسجي ، اصفر ... و ... ما الفرق ؟

ليست الشمس حمراء ولا بنفسجية . انها حينما تمنح عطاءها الاكبر ، تمزج الالوان كلها لتحيلها ضياء ابيض شفافاً ... تمزج ، وهذا سر آخر .

والشارع الكبير ، والحياة التي تتفجر فيه ، والبناء الذي ينمو يوماً بعد يوم ، وساقها الكسيح ، وعشرات النساء ، كل يوم يرحن ويجئن ، يحملن في عيونهن حكايا بيوت ممزقة تكافح لتحيا ، لتأخذ نصيبها من الشمس .

يغمرها صفاء عميق ، حنو كبير ، انفتاح صادق نحو هذا العالم الذي اكتشفته .

ولكن" في اعماقها قصة محنطة يجب ان تحسن دفنها ، وقبواً كمدافن القرون الوسطى تهيم فيه الخفافيش والرؤى المرعبة ، وهي قد خرجت منه الى عالم آخر وعليها ان تحكم اغلاقه .

ماذا تبقى ؟

على الجبس المحيط بساقها ، تعود لتكتب دون وعي منها : « لا شيء ... لا شيء سوى كلمات التأبين الاخيرة ... لا شيء سوى ان اودعك زورقاً وارمي به في نهر النسيان ... لا شيء . لا حقد . لا كراهية . كأن ما كان لم يكن ... وطفولتي قد نجت ... نجت » .

ان في فمها اكثر من تنهيدة وداع تحب ان تصعدها .

وتجد نفسها تلجأ الى «كراستها» لتكتب وتكتب ، وتحيل نتف اعصابها الى حروف وكلمات وتكتب :

«زوجي العزيز ،

بعد أعوام ثلاثة من فراقنا اكتب اليك لأقول : وداعاً ... لقد استطعت ان تذلني طوال اشهر وترفض منحي حريتي وترفض تطليقي فعلمتني انني كنت غبية يوم قبلت الزواج ولم افرض ارادتي بأن تكون (عصمتي بيدي)، اي ان يكون حقي في حبك وفي رفضك مساوياً لحقك ما دمت انسانياً اساويك . لكنني اغفر لنفسي هذه الحماقة لانني كنت يومئذ في السادسة عشرة من عمري ، اتوهم الحب أزلياً والوفاء عهداً لا ينفصم .

وداعـــاً !

اراك تضحك .

«وداعاً» كلمة مضحكة ، أليس كذلك ؟ فنحن منذ افترقنا ذلك اليوم لم نلتقِ ، ولم تقع عيناي عليك الاّ مرة واحدة منذ شهر ، ليلة تدهورت سيارتي .

ولكنني الآن اعترف لك ، اعتراف الاقوياء لا اعتراف الضعفاء بأنك كنتَ معي طوال اعوامي الثلاثة ... كنت معي تلجم فمي بطريقة خاصة تحدد دائرة بصري وتشحن اجوائي بتلك الانفعالات المدمرة من الخيبة والغربة التي اهرب من مواجهتها ... اهرب ، اهرب اهرب بألف وسيلة ... اركض ولا أهدأ ... لا ، لا تدع غرورك يسبق كلماتي قلت : «كنت معي» ، ولم اقل : «كان حبي لك» . لا ... كان حقدي يرافقني ، كراهيتي ، نفوري وحذري واشياء اخرى كثيرة كنت اجهلها

كطفلة لا تعرف من فن العطاء إلاّ السخاء .

اعود لاكتب اليوم اليك ، اليك انت ، لأن الرحلة في نفق الضياع قد انتهت ، لأن البحث في عيني رجل عن كوة الى عالم الصفاء كان خاطئاً من حيث المبدأ ، ولأنني أسأت الى عشرات منهم باخلاص ، باخلاصي لافكار خاطئة غرستها في نفسي دون ان تدري ...

عزيـــزي ،

« ألغاز »... ارى في وجهك حيرة وتعباً ...

اسمعك تقول : « ألغازها ... دائماً ألغازها » .

هذا صحيح ، فقد كنا غريبين دائماً . كنا كضيفين في فندق مزدحم اجبرا على الاشتراك في غرفة واحدة . لا يربطنا اكثر من التفاهم الذي يمكن ان يربطهما .

كان تفكيري في درب خلاص ، في الآخرين ، في الوجود يضحك . كانت اهتماماتي العامة تغيظك لأنها تلهيني عن مطبخك . وارضائي لفكري كان يلهيني عن إرضاء معدتك !

وكانت ملايين اشارات الاستفهام ، المزروعة في العيون وفي التصرفات البشرية المختلفة تستوقفني ، فيدهشك ذلك ويثير سخريتك .

وكان عالمك أنت ، او الجزء الذي تحتله من غرفتنا المشتركة الاجبارية ، يمثل كل ما تكره طفولتي ، وكل ما يثير اشمئزاز عطائي ...

هل تذكر ؟ طوال عامين من زواجنا لم احتجّ ، لم أناقش ، لم أصرخ ؛ وهدوئي كان يثير اعصابك ، هل تذكر ؟

كنت تتمنى أن تراني اصرخ ، أبكي ، ان ترى دمعة واحدة تنحدر على وجهي .

وكنت اقول لك انني حينما ابكي احس انني عارية تماماً ... وانك لا تستحق ان تتعرى أعماقي لك .

والتجيء الى اوراقي لاكتب واكتب وامزق ما أكتب .

أخونك مع حروفي ، مع حروفي فقط . ولو كانت حروفي رجلاً لتسللت ذات ليلة وقتلته !

ولكنك لم تكن لتدري كيف تحارب حروفي .

حتى يوم تركتك ومضيت لم تصدق . رأيتني ألملم نفسي بالهدوء نفسه الذي كان يرتسم على وجهي ، وانا اكتب ، وانا اتمزق ، وانا امتثل لاوامرك حين أرتدي مجوهرات الأسرة كأنك تزوجتني لأقوم بعرض يومي لها !

يا انا ! كيف كنت انوء بكلماتك وماساتك ، أسير الى جانبك وأنا أذكر الدواب المحملة باللآلىء والياقوت ايام علي بابا . واصمت .

ويوم افترقنا ، قلت لي : « ستعودين » ...

وضحكتُ منك .

هل تذكر كيف ضحكت ؟ هل رأيت لعنةً على شفتي حيوان جريح محتضر ، لا يعرف كيف ينطق بها ؟

ضحكتُ ، وابتعدت .

وقدرتي المتفجرة على العطاء تشوهت ، تشتتت ، فقدت ثقتها بكل شيء ؛ ونبع الحب الهائل في اعماقي تعكر ، صار يشبه نهراً من الدم الاهوج

الذي يغلي ، يحرق ، يخرب ، يكتسح نفوساً هادئة دون ان ادري . وانا كالمنوّمة ، اقتل وانا اندب قتلاي .

والطبول الوحشية ؟ في افقٍ ما ، كانت ملايين الايدي الخشنة لرجال لهم عين واحدة حمراء ، تقرع طبول مصيري .. آلاف المزامير الممزقة تنتحب ألحانها وتتلوى ، فيها الكثير من صرخات اجساد تساط ...

وانا هنـــا .

أنا هنا وهناك وفي لامكان .

وتلك الشبكة العارية من اعصابي معلقة بأصابع قارعي الطبول ، بحنجرة عازف الناي الأرعن ، بموقع السياط على الاجساد العارية ، وانا مشتتة ممزقة ؛ كل ما اقوم به مجرّد ردود فعل غريزية ، هرب ارنب سلطت على جراحه اضواء سيارات مطاردة .

الى اين ؟

من اين ؟

لا دليل !

لا علامة !

وكنت اقف في الليالي الطويلة وحيدة ، وارفع رأسي الى السمـــاء الشاسعة ، واتمنى لو كانت نجومها تكتب لي اسم يقيني الذي سيستولي على حروفي وتاريخي وقدري ... اطمئن اليه ، واجد السلام في تقديسي اياه.. وأهـــدأ ...

لاادري لماذا آمنت بأن الحب وحده خلاصي .

وقررت : يجب ان احب قدراً ما ...

وكان ذلك صعباً ،بل مستحيلاً وانت معي ، ترافقني في كل خطوة ، ترافقني كراهية وشكاً وسوء ظن .

وكنت كلما انفردت بانسان ما ، أراك ثالثنا. يحدثني هو فأسمع الكلمات تخرج من فملك ، فأسخر منها!

وبحذق فريسة عجيبة ألفت مهنة الهرب من الصيادين صارت تعرف أساليبهم وخططهم كلها ، لكنها تجد لذة خبيثة في تجاهلها، وتجـاهل فخاخهم التي لا تخفى عليها ، حتى اذا ما ظنوا ان الفريسة سقطت ، وبدأوا بإشعال النار واعداد السياخ للشواء المنتظر كنت اقطع شباكهم ، واعض على سهامهم وانطلق هاربة مغرّدة ، متحدية نظراتك انت.

كنت اتحداك في كل خطوة ، في كل حرف ، في كل درجة مـن درجات سلم نجاحي وكانوا جميعاً ينزلقون على صفحة ايامي ،ولا يتركون خدشاً ولا يخلفون بصمة او وشماً من نار . واعماقي تتوق الى بصمة قوية ، الى جرح له تاريخ، الى اي شيء حقيقي ...

وعشت مع نفسي صراعاً مريراً . أمثل دور الطفلة التي تريد ان تأخذ وتعطي وتحب وتضحك للشمس .

لا ريب في ان عدداً من الصيادين الذين مروا بغاباتي ، لم يجيئوا ليزرعوا الموت في صدري ،جاؤوا يزرعون الحب والوعي المشترك بقضايا انسانية تهمنا جميعاً ... ولكنني كنت عاجزة عن التمييز . كنتَ ابداً معي ،والطبول الوحشية ابداً تدق ألحان الهرب والتمزق الاعمى والحذر ، والركض المجنون لوعول في اجمات تحاول ان تشتبك بقرونها .

الصراخ الاسود المحمر المزرق ... لون احتضار لما ينتهي ... لون حياة تختنق بلا رحمة ... لون الاشتعال المكبوت تحت الرماد المخادع .

وكنت أكتب وأكتب ، وارى العالم من زاوية امرأة ممزقة راكضة ، لا تقف ثانية لتضمد جرحها لانها ترفض أن تراه وان تعترف به .

★ ★ ★

وكانت لحروفي بعض الوان قوس قزح ، بعض جماله وغرابته ... الوان حلوة ، صاعقة ، تستوقف الانتباه ، كقوس قزح اراه الآن ، لكنها كانت تفتقر إلى بياض الشمس كي تدفىء وتطهر وتشفي ...

وكنت ، رغم كل شيء ، أتوق إلى أن تكون لحروفي تلك القوة التي تطهر وتشفي . وكنت اجهل كيف ... كيف ؟ كيف؟

في غمرة الطبول ، والركض ، والضياع ، وليالي الغربة ، وصدر السماء الذي لم يتحول قط إلى صدر يقين يحميني ، والشائعات التي اتمنى من صميم قلبي لو كانت صحيحة لأتمتع بما ورد فيها على الاقل ...

في غمرة هذا كله كنت انزف بصمت وكبرياء ، اذوي ، انطوي على جرحي بأناقة بكبرياء تمنعني من الانضمام الى قافلة النادبين علناً ، المهزومين علناً .

وحرمت نعمة الغباء ، فعجزت ايضاً عن الانضمام الى قافلة السعداء ...

وحرمت نعمة اللامبالاة ، فعجزت عن الانضمام الى قافلة الذين يخفون استهتارهم وابتذالهم وراء كلمة ضياع ...

وظللت هكذا نغماً ناشزاً زائغاً لا اذن تلتقطه ، ولا هو يعرف لحنه الأساسي لينضم إليه .

ثلاثة اعوام وانت ، وحقدي ، وصيدي ، وقتلاي ، وحطام مراكبي ،

والدوار ، ومرارة الخيبة ، والمنارات المطفأة ، والشواطىء الصدئة ، وانا (يا انا !) وعالمي الذي اعدمت فيه الآخرين جميعاً ... كأنني إله فاشل امسك بممحاته وبدأ يمحو كل ما حوله ...

وايقاع الطبول الوحشية يطغى على صرخات ملايين الناس حولي ، الذين يتألمون كما أتألم ، ويموتون ويضيعون ويجوعون دون ان ادري بهم ... دون ان اصنع من اجلهم شيئاً .

وفشلت ، اعترفت لك بأنني فشلت في أن اعيش حباً ابيض معافى ، اضحى اللون الابيض عقدة عمري ... البحث عن الابيض ، عن منجم أبيض ، عن حب ابيض ، عن حرف ابيض ، عن لحن ابيض ، عن مقلع ابيض ابني منه . وكنت انطلق وحيدة في اعماق الليل ، كل ليلة اعد نفسي بزيارة المقلع ، لكن قرع الطبول المجنون يهدم اعصابي ، يفتت ذراعي ، فيطيش معولي ، ولا اعرف كم وكم من الخراب اصنع ، وانا أسعى لأبني.

وقلت : «سوف ادرس . سوف اجعل من كتبي مسرحاً لشجاري مع وجودي» .

ولكنني عاجزة عن اي لقاء مع الآخرين. عن اي تبادل حتى مع حروفهم.

وكانت الأيام تمضي ، وموعد تسليم اطروحتي الجامعية يقترب ، وانا ضحية الدوامة الرعناء ، كرة من القطن المشتعل تتلوى ، وتركض من مكان الى آخر ، بحثاً عن ماء ، وفي غمرة بحثها تنشر الحريق والدمار ...

مرة سألتُ صديقتي سميرة (هي سميرة عزام نفسها الكاتبةالتي تسمع بها)

— قولي كيف ، كيف تكتبين حروفاً بيضاء هكذا ، الملح في أعماقها جمال الوان قوس قزح ، لكنها بيضاء ايضاً ، تشفي وتطهر ؟

فقالت لي :

ـ الآخرون ... هذا هو السر الكبير ... انك معزولة عنهم .

ـ بالعكس انني اكتب عنهم .

ـ نعم ولكن من زاوية واحدة ، من زاويتك انت ؛ انك لا تتنفسين من هوائهم . انك تصنعين بنفسك رياحك وزوابعك وتتنفسين منها ...

ومرة قال لي رجا (مخرج المسرحيات التي تصفق المدينة لها) :

غالية ، احب قصصك ، ولكنني اتمنى أن أقرأ لك قصة بيضاء .. حروفها بيض ... فيها امنيات بيض ... العالم بائس يكسو الهباب وجهه ، امنحيه شيئاً أبيض .

وكانت عيناه الرماديتان سماء شاسعة ، يندف منها ثلج أبيض مهدىء ، يسقط على وجهي الجاف . وتمنيت . تمنيت ألا أموت حتى احقق ذلك ، حتى أكتب قصة بيضاء ارفعها لسماء عينيه ...

حتى كانت تلك الليلة منذ أسابيع ...

هل تذكر يا زوجي الصديق اللدود ؟

كنت خارجة من دار احدى صديقاتي حيث قضيت سهرتي ، وكتب اطروحتي مرمية على مكتبتي ، تنتظرني بيأس .

وكنت واقفة على الرصيف ، ابحث عن مفاتيح سيارتي في حقيبة يدي ، حينما رفعت رأسي ورأيتك فجأة أمامي .

والتقت نظراتنا .

اعترف لك بأنني لا ادري بماذا احسست ... كانت هنالك دوامة من الإنفعالات ... تمنيت ان اراك تلتهب امامي فجأة ، كما تومض لمبات

التصوير ثم تسقط على الارض امامي كومة من رماد ، لاستريح من سحر التعويذة ... تمنيت ان امد يدي لامزق وجهك بأظافري ، فتمر يدي خلاله ، وأتأكد من أنك كنت وهماً ، مجرد شبح يجب أن أسقطه من خزينة أحكامي..

وأحسست بنبع الدم يغلي، وبأصداء ليال طويلة من البكاء الأخرس تتلاطم، وبالتعب ، بالمرارة، بفقاعات مرة تنفجر في حلقي وفمي، وبالمفاتيح في يدي ترتجف . وبالباب لا اعرف كيف أفتحه ، وبجسدي لا أعرف كيف أخفيه في السيارة ، وبيدي تعجزان عن توجيه المقود بشكل سليم ، وبقدمي على (دواسة) البنزين ، وبشتيمة من فم انســان كدت أدوسه ، وبالشوارع تركض تحت انظاري ، وبالريح تصفر ، وبالمطر يتدفق على النافذة ويحد الرؤيا ...

أحسستني سمكة في شلال ، عاجزة عن الرؤية وعن الحركة ... والطبول الوحشية كما لم تقرع يوماً . والسياط التي تهــوي ، والنحيب والمزامير ، والوجوه ، سيل من الوجوه يتدفق ، وأكوام من الكتب ، وخليط من الحنين واليأس .. وأنا أبكي وأبكي ... وأنطلق بأقصى سرعتي قافلة من الضجيج والبكاء والمرارة في الليل المطير ...

منعطف مفاجىء ، السيارة تنزلق وتدور حول نفسها بقوة لا تقاوم ، أفلت المقود ، تنقلب ، شيء ما يصطدم برأسي ، ألم مرير وانا أصرخ : «آه ! » . ثم أسقط في بئر لا قرار لها ...

.. أذكر أنني فتحت عيني بعد ذلك في مكان أبيض . وأحسست بارتياح وأنا أرى اللون المحبب يحيط بي . جدران بيض . ملاءات بيض . المرأة التي تغرس حقنتها في ذراعي بيضاء الثياب والتعابير . وساقي التي تؤلمني ، وجدتها بيضاء غارقة في الجبس لما كشفت الغطاء عنها .

قلت :

ــ أين أنا ؟

وكنت اعرف . وكانت الممرضة تعرف انني اعرف . لذا لم تجب. بحنان ابتسمت .

في اليوم التالي ، قرأت في احدى الصحف التي جاؤوني بها ، ان سيارتي انقلبت ، وانني ما زلت غائبة عن الوعي !

وضحكت ، وحمدت الله على ان والدي مسافر ، ويوم يعود سوف اكون في حالة حسنة . ثم كانت المفاجأة الاخرى...

جاءت امرأة تشبه ابي وقالت لي انها عمّتي ! عمّتي العرافة التي تسكن في بيروت ، منذ هربها مع رجل من غير دينها ، وزواجها به. ولم اكن لاعرفها لان الاسرة ضربت حول مكانها وعملها ستاراً من الكتمـــان. وبالكبرياء التي ورثتها انا ايضاً عن ابي ، سمعتها تقول لي :

ــ كنت اعرف انك تدرسين هنا ، لكنني لم اتصل بك لأنني اعرف رغبة والدك . اما الآن ، فاعتقد انه سيسرك ان تكون لك عمة.

وكان ذلك صحيحاً . وقلت لها : « شكراً » وانا أقبلها.

وانا اكتب اليك الآن من دارها التي لم ادرِ ان شمسي ستشرق من جدرانها ، وان وداعي الاخير لك ولغربتي ، وحقدي ، ووجهـــك سيكون هنا .

اسابيع طويلة .

في اليوم الاول كان قرع الطبول لا يهدأ . وقد حملتني عمّتي الى الشرفة هذه ، ولم يكن بامكاني ان انطلق كعادتي هاربة من نفسي . وجدتني محاصرة بالعالم الخارجي وبعالمي الداخلي الحقيقي ، مقيدة الى الارض ، مشدودة بساقي البيضاء .

وكان علي ان اتوقف ، وان اواجه الاشياء واناقشها ، وان اتأمل فوهة جرحي المسموم ...

ودفعني الملل الى ان اتلصص على عالم الآخرين وبدأت ارى الناس كأنما للمرة الاولى ، بعدما كنت امر بهم مروراً عابراً، ولا يخلفون في نفسي إلاّ ما تخلفه المشاهد على نافذة قطار لاهث.

وكانت هنالك مدرسة للاطفال امامي : عشرات الصرخات العذبة العفوية تنبعث في اوقات الفرصة ثم تعود لتهدأ فترة فأراهم خلال الجدران صفوفاً من الوجوه بريئة الخبث ، تتصنع الهدوء والاهتمام بالدرس والبناء أمامي . رأيت للمرة الاولى كيف يبني الناس حجراً حجراً .. كيف ينتزعون اللقمة الحمراء بأسنانهم عن الاسمنت والحديد، كيف ينعقد العرق ، اراهم يمسحونه من بعيد واسمع انفاسهم المتعبة المتسارعة.. لكل منهم داره ومائدته التي يجب ان تمتلىء ومطالب من افواه فاغرة لا تنتهي ...

والسيارات الراكضة المتدافعة . والحياة في الشارع الكبير ...

وانا هنا ، والجوقة التي تمجد ضياعي بعيدة ، وانا لا شيء ، ذرة من ملايين الذرات ... وصوت اجراس الكنائس وآلاف الهمهمات الضارعة المتوسلة ... ووجوه النسوة اللواتي يجلسن امام عمّي ، في وجه كل امرأة عالم عجيب متماوج من الاحاسيس التي لا تعرف كيف تعبر عنها ...

كل امرأة تزورنا ، احس انني ازورها ، واعيش معها في دارها وارى طفلها المريض وزوجها المسافر وامها العاجزة ...

وطفت بيوتاً كثيرة ، ورأيت الآلاف والتقيتهم وفهمتهم واحسست

معهم وشاركتهم موائدهم الفقيرة وبكاءهم الخافت الخفي وامنياتهم الضارعة الممزقة ... وتجولت في سجني كما لم اتجول طوال حياتي... ورأيت الناس واكتشفتهم ، واحببتهم ، وبدأت ألوان كثيرة تتدفق في عالمي وفي ...

ان في مناجم اعماقهم كنوزاً لا حد لغناها وتنوعها.

وكان ألمي يصهر الالوان كلها ، ألوان ملايين من اقواس قزح التي لم تخطر ببال سماء ولم تحلم بها الغيوم ...

واللون الابيض صرت اعرف مناجمه.

والصخر الابيض صرت اعرف مقالعه.

وحروفي بدأت تتنفس مع الآخرين من رئة واحدة ، تلتصق بهم ليغذي جسدها النسغ العظيم الذي يغذي الأمة بأكملها .

وبدأت ابني اعماقي من جديد كما يبنون ، واكذب اذا قلت لك انني نسيت احزاني وخيباتي فأنا كالناس جميعاً ، ولكنني اغرقتها الى اعمق اعماقي بعدما كانت سداً يحول بيني وبينهم ...

وعدت افكر فيك ، يا زوجي العزيز ، يوم جاء الاستاذ رجا يعودني فقد وجدت كلماته لا تخرج من فمك، والسماء الرمادية في عينيه بريئة من آثار هشيمك ، قهقهاتك لا تشوه آماد الصمت فيها ...

وكانت السماء كما هي ابداً ، تندف ثلجاً شفافاً يغمر وجهي بصمت وهدوء محبب ، يبلل عطش وجهي ، عطش الصحارى الى فصل خريف حنـــون .

ووجدتني افكر فيك بكثير من الموضوعية .

لم يكن ذنبك اننا لم نتفاهم ولا ذنبي .

لم تكن تخدعني ولا كنت اخدعك .

كل ما في الامر ان كلاً منّا كان يعني بكلماته قيم الاشياء كما يفهمها هو في عالمه ، ولانه كان لكل منا عالمه ، عجزنا عن التفاهم او الحوار او اللقاء ... وانت ايضاً ، لك منطلقك ورغباتك واساليبك.

ووجدتني لا احقد ولا انقم ...

وجدتني امام رجا لا احس بأنني سأخوض معركة .

ان في مجرد وجوده رائعاً هكذا نصراً لي ...

ان في مجرد معرفتي له ما يكفي ، فهو ايضاً انسان آخر ...

لا يكفي ان اعجب به كي اعتقد انه خلق من اجلي ...»

واذا التقينا فسيكون ذلك رائعاً ، واذا فشلت فسأتألم بصمت وباعتزاز لانه يستحق كل عطاء ، لكنني لن أفرض على الوجود ان يرتدي ثياب الحداد .

وكتبي المدرسية ، يا زوجي العزيز ، عدت التهمها .

عدت التقي الناس ، بعلومهم وكنوزهم الانسانية ومقالع عطائهم .

نسيت ان اذكر لك ان قوس قزح السماء قد اختفى الآن ، والشمس عادت تضيء بيضاء مطهرة دافئة ، تحتضن الحياة في الشارع الكبير ...

وانت ، اذا ما التقيتك ذات يوم ، فسأرحب بك كأي جار او عابر

سبيل عرفته ؛ وقد أسألك عن مشاكلك وزوجتك وأطفالك، واتمنى لك الخير الذي اتمناه الآن للعامل الذي يحمل الاحجار امامي ، والطفل الذي يقفز امام المدرسة، والمرأة الجالسة امام عمّي في الغرفة المجاورة تشارك بضعفها وقلقها واملها ملايين البشر ...

وقد اقرأ لك قصة من قصصي البيض التي سأكتبها ، وقد احدثك عن عيني رجا الرماديتين ...

بوق سيارة امام الباب . اظن ان ابي قد وصل .

غـــالية »

بحثاً عن سهول القمر

البحث عن روح شقيقة : ذلك الطعم
الخطر الذي قد تعض عليه اكثر النساء العازبات
ذكـــاء .

الكسندرا كولنتاي

كم أفهمك حين تقولين انك « مغرمة »
بالحب .

روزا لوكسبورغ

١١ — ٩ — ١٩٦٠

بحثاً عن سهول القمر

سألها وهو يوصلها بسيارته الخضراء كعادتهما كل يوم بعد انتهاء العمل ، وعيناه تشربان من عينيها المسكرتين : اذاهبة انت الى حفلة الخميس الراقصة ؟.

— لا ، لن اذهب ..

« انها ليست بذاهبة ، فهي تكره سحب الدخان الخانقة ، وتكره ان يضمها انسان غريب الى صدره بدعوى مراقصتها ، وتكره كلمات الغزل التي يبصقها رجل ثمل ، ومستنقع الرياء القابع في زوايا العيون » ..

وتسللت نظراتها اليه .. كل ما فيه ينطق برجولة متحدية آسرة .. كل ما فيه يصرخ بها ويدعوها بحدة وعنف .. حتى يداه ، والطريقة التي يمسك بها عجلة القيادة .. بقوة .. بشدة.. ترى كيف تكون قبلة رجل يقود سيارته بهذه القسوة الاخاذة ؟.

وعاد صوته الدافىء يغمرها : اين تقضين امسياتك ؟.

ـ في المهاجرين .. بعد ان تجتاز آخر الخط بقليل ، وتخلف وراءك المقاهي المتناثرة ، تجد طريقاً ترابية تتجه نحو قبة اثرية في قمة الجبل .. انني اجلس قرب الطريق بين الصخور حيث تموت اصوات الناس قبل ان تنغرس في اذني .. يوجد منظر بديع هناك .. ولا سيما في هذه الايام المقمـــرة .. واسم المكان : « قبة السيار » .

ـ لقد خلقت في نفسي رغبة الذهاب والتمتع بالمنظر .. اذا وجدت من يرافقني !.

ـ ....

ـ مع من تذهبين عادة ؟

ـ وحدي .. الا اذا وجدت من يرافقني !.

وكانت تعرف ان دعوتها صريحة .. وانتظرت منه ان يقول « سأكون رفيقلك الليلة يا صغيرتي .. وسنرتمي معاً بين الصخور الضائعة .. ونرقب مدينتنا الرمادية تغمض عيونها المضيئة حتى تبتلعها هوة الظلام .. وننصت لاغاني السكون .. ولدقات قلبك الطفل الذي اعرف جيداً كيف يحبني .. سأضم رأسك الصغير الى صدري ، وانثر شعرك الاسود الطويل على كتفي وعنقي .. ثم ابعد بشفاهي خصله المبعثرة على جبينك وخديك .. واحكي لعينيك البريئتين قصة عاشقين ذهبا مع الريح للبحث عن سهول القمر .. ولم يعودا بعد » ...

ولكنه لم يقل شيئاً !. بل اوقف السيارة ببساطة امام بيتها ، ولم يكن امامها الا ان تمضي .. بلا دعوة .. ولا حتى امل في شبه دعوة !.

وحل المساء ضيفاً ثقيلاً على قلبها المشرد .. ينهش من جراحها المفتوحة بنهم اسود ::

ولفظتها جدران المنزل الى الشوارع الحزينة ، بينما كان القمر يرسل اشعته الباردة المريضة ، كأغنية خريف مشلول !.

وظلت تنزلق من درب الى درب حتى وصلت الى (آخر الخط) .. وخلفت المقاهي وراءها .. واختفت بين صخرتين رماديتين الى جانب طريقها المنعزل .. في « قبة السيار » .

جلست وحدها في المكان الذي حدثته عنه وخذلها .. تحلم بضحكته المبهمة التي تفيض منها انفاس طفل وهمسات رجل ! بالشعيرات البيضاء التي تسللت الى ظلمات شعره .. لتحكي عن خبرته .. وتزيد من مظهر القوة والرجولة فيه ..

واقتربت سيارة خضراء من المكان الذي قبعت فيه ، ثم وقفت بالقرب من مجلسها الخفي .. وتناهى اليها صوته العميق يقول : ما رأيك بهذا المكان الذي اكتشفته لك ؟..

واجابته الشقراء التي كانت تجلس بجانبه .. في مكانها .. في المكان الذي تجلس فيه كل يوم ظهراً كمتطفل جاهل ، اجابته :

— انك تحسن الاختيار دائماً !..

وانسلت ببطء من الوليمة المحرمة .. وانطلقت تعدو كأرنب فزع .. ثارت في اعماقها اخطر عواطف المرأة ! الغيرة والكبرياء !.

ولما ارتمت في فراشها تلك الليلة ، لم تحلم بيده القوية تداعبها ! لم تضم الوسادة الى صدرها بحرقة وشوق !..

لم تبلل مناديله — الذي سقط منه ذات مرة والتقطته — بدمعها ! وانما اغمضت عينيها بقسوة وانفة .. واطبقت جفونها الجافة بصرامة فيها من الكبرياء اكثر مما فيها من الغيرة !.

والتقى بها الخميس بين الحفل الراقص .. ودهش لمنظرها .. فقد بحث عبثاً عن الطفولة في وجهها البريء .. وغاص عبثاً وراء النظرة القلقة الصريحة .. وكان في وجهها ثورة نمر ، وألم امرأة .

ودهش اكثر لما رأى قامتها المشوقة تسبح في سحب الدخان ، وتراقص شاباً فمه يبصق كلمات الغزل الملونة برائحة الخمر .. وعيناه حفرتان فارغتان كمغاور التفاهة ..

واحس بألم مبهم جديد عليه .. واقترب منها . وراقصها .. حاول ان يعانق نظراتها .. عبثاً ! كانت عيناها زائغتين .. مراوغتين .. تحدقان في اللاشيء .. وتوهمان كل رجل انهما تحدقان اليه ! . كانت نجمة الحفلة ! . وسألها بصوت متردد : ما رأيك بسهرة هادئة في (آخر الخط) ؟! ...

اجابت وقلبها يدمي : « لن اذهب الى الجبل ابداً بعد اليوم » ... واضافت وكأنها تبكي : « ألا ترى انني اتمتع بالحفلة ؟ » .. وابتلعتها سحب الدخان والضجيج .

ذبابتان

إننا نلمح الحياة لمحاً : الصباح ، الربيع ،
الأمل . ولكن ليس هناك إلا الموت الذي يتاح
لنا الوقت لرؤيته حقاً ...

... من لم يخلق بعد سيموت أيضاً .
إن كل شيء ميت تقريباً .

هنري باربوس

١٧ — ٨ — ١٩٦٠

ذبابتان

انا تائهة منذ الازل .. أجوب بحار العدم كحوت أعمى .. عبثاً ابحث عن منارتي التي اضعتها قبل ان أولد .. اراها أينما تلفت وضوؤها المرتعش الوردي يلوح ثم يضمحل .. يشتعل ثم ينطفىء .. كأنها تغمز لي باستهزاء .. كأنها قدري الذي يسخر مني .. كأنها سراب عمري ..

وأنا اعدو رغم الضباب .. احمل شراعي الكسيح .. وادور به في بحـــار الضياع ..

ذات ليلة مررت برمال بائسة تهالكت في حضن ساحل عجوز .. رمال سئمت عد الليالي والدهور كما سئمنا .. كانت الامواج تنبش الشاطىء بحثاً عن أقدام طفل صغير تتلذذ بغسلها ، وبصدرها حنين مشبوب الى لثم اجساد يتفجر الشباب والحب في عروقها .. لكن الشاطىء قفر .. وامواجه تعدو خائبة .. تلطم الصخور التي تعول كجنيات القدر ..

هناك لمحت حطام انسان ادمته عاصفة بشرية .. كانت الديدان تلعق

جراحه المفتوحة بنهم مروع .. وكان في عينيه كبرياء صقر نهشت منقاره صراصير سوداء .. كان مخلوقاً غريباً .. تود لو تغيبه في الحنايا وتطبق عليه الضلـــوع .

سألته « من انت » ؟. وكان في جوابه هدير ريح مكتومة « انا التعاسة التي تجتر نفسها .. كوكب بلا مدار .. كتلة من جراح مسمومة تلف وتدور في المدينة البلهاء التي تبيع وتشتري الانسان بحفنة من تراب اصفر دنس ..

كانت لي قطة وديعة .. رقيقة كالدمعة .. كالنغم الحزين .. لم يكن حبنا اسطورياً .. لم اقض الليالي مسهداً تحت شرفتها احلم بأطراف اصابعها .. ولكنها كانت شريكتي في الحياة .. في الصراع .. كانت ام بناتي الثلاث .. ثم مضت .. كحلم ليلة صيف .. ابتلعتها هوة مظلمة كلها ديدان وعفن وصديد .. هوة الموت التي تضحك مني بوحشية حمراء كلما اغمضت عيني لأنام — وما اندر ما أنام — .

وتجلدت .. وبدأت الصراع .. الصراع الذي كان يبدأ دوماً حيث ينتهي .. دوامة محمومة بلا نهاية : — عهود وفاء .. مثل عليا .. احلام مراهق بالكمال .. ولكن الدوامة لا ترحم .. تهبط بك الى القاع ثم تصعد من جديد .. لا لشيء الا لتهبطي .. ومثلك العليا تتهشم امامك .. تتلذذ بتعذيبك ..

وتوقفت عن الصراع .. وبدأ العبث يقتات مني كالعثة ، كالهوام الذي يأكل عيونها الحلوة .. فقد اكتشفت ان فهمي للعبة وصراعي اليائس لا يغيران شيئاً من مصيري المرسوم .. وان علي ان اسير واسير مع القطيع الابله .. لانني بالرغم من كل شيء انسان .. انسان بكل ما في الانسان من ضعف ووحدة وحاجة ولوعة .. وحرقة .. ونزيف .. انني وان سجدت

الآلهة للحقيقة التي وجدتها ، لن اخرج عن كوني ذبابة بشرية .. تلك هي اللعبة الكبرى !.

وانا يا اخت رجل ناجح بعرف القطيع ! مرح يرقص بخفة القرد ، وغبي محشو بالتراب الاصفر ..

وانا يا اخت فاشل صغير في حياتي .. وفاشل كبير لانني اعرف فشلي ولا اجد لدفعه سبيلا..

ولكن .. من انتِ ؟.

واجبته ببساطة : « انا الخطيئة ، انا المرأة التي أحبت رجلاً لم تحترمه .. كنت فيما مضى الطفلة التي تحطم دميتها ثم تبكي عليها .. ولاتدري لماذا .. وانا اليوم المرأة التي حطمت نفسها ولا تجد دموعاً في مآقيها .. لتبكيها !.. انا لا ادري ما انا .. انا الضياع .. انا بائسة لأنني أرى.. وتعيسة لأنني أحس ، ومهجورة لأنني أفهم .. اذا اردت ان تعيش فعليك ان تكون بليداً وأحمق » ..

وعرفته كما عرفني .. فقد التقينا قبل ان تولد الدهور ، وقبل ان ترقص موجة او تعول عاصفة ، او يدرك طفل ما الحبور..

وفتح القدر الاعمى عينيه الكبيرتين بدهشة وهو يرقب ذبابتين بشريتين جرؤتا على خط سطور من عهود الوفاء في صفحاته المبهمة المفجعة ..

وغالب القمر فضوله برهة ، ثم ازاح سحابة وردية حجبته ، واطل بكامل وجهه ليحدق ويحدق .. فقد رأى جراحاً تبسم لجراح .. وآلاماً تضم اليها آلاماً .. ورأى شبحين هدتهما الليالي .. وقد حملا شراعهما الكسيح الذي غسلته امطار الشتاء وسارا في مأتم الشمس .. حملاه وفي عيني كل منهما عزاء للآخر عن بحار الضياع ، عن لعبة القدر..

وذات ليلة ، مر بنا ونحن ندور بشراعنا الكسيح يخت متخم بالصباغات والالوان والآثام .. محشو بقطع قماش ملفوفة على كتل من اللحم تدعى نساء ..

نظرت احداهن – خلال غلالات الكحل التي تطلي عينيها – الى زورقنا التائه في عوالم الضباب وقالت : يا له من قران فاشل !.. ليس فيه انسجام في السن .. انها طفلة أصغر منه كثيراً .. ولديه ثلاثة اطفال من زوجته الاولى .. ثم ضمت اليها عجوزاً غنياً كان يتقيأ عبارات الغزل كقط يبصق فأراً اجرب !..

وها نحن نسير ونسير .. ونحن ندرك جيداً ان كل ما نفعله عبث .. وان كل ما فعلناه وما قد نفعله عبث .. ولكننا نستمر لا ندري لماذا .. نرفع اشرعتنا ونحن نعرف جيداً ان الرياح قد ماتت . ونبحث عن نجم قد نكون دفناه بيدنا هذه البارحة .. هذا قدرنا يا زوجي الصديق .. قدر كل ذبابة بشرية ..

ولا أجد العزاء إلاّ في شلال الضياء الذي يعربد في عينيك .. ويغمر روحي بالسلام .. بالسكينة والاستسلام ..

ولا اشعر بالاطمئنان إلا لبسمتك .. وفي كل بسمة عهد مقدس .. بصداقة .. بأخوة .. بحب ايها الرفيق الغالي .. بأية عاطفة متبادلة تلهي قلوبنا عن مأساتنا البشرية .. عن تفاهة حياتنا .. وحفرة الارض الموحشة التي تفغر فاهاً .. وتنظر اليوم الذي تبصقنا فيه الدوامة .. لتبلعنا هي !.

وأجد فيك العزاء عن ضياعنا .. وعن سر الشيطان الذي يعانق الاله في اعماقنا البشرية .. عن الوحل الاحمر الذي تشدنا السلاسل البهيمية اليه بينما تتعلق عيوننا الحائرة بعالم من مثل يلتحف بالسماء والنجوم .

وأجد في حبك العزاء عن ملايين المتناقضات.. عن الاسئلة الملحدة التي نحاول عبثاً إبعادها عن افكارنا .. عن اكذوبة الحياة الكبرى.. ولغز الوجـــود ..

ويطلع فجرنا الدامي.. ونحن نهيم يا صديقي يداً بيد .. وخداً لخد .. كأننا جرح يعانق خطيئة .. وخطيئة تعانق جرحاً ..

وتلفنا سحب الازل ، بينما تبحث عيوننا – التي اقتلعتها نسور القدر قبل ان نولد – تبحث عن مينائنا المهجور.. ومنارتنا المنسية !..

ونحن ندرك جيداً ان بحثنا عبث .. عبث .. عبث.. ولكننا نستمر ولا ندري كيف ولماذا يا صديقي..

إقرار

نشرت محتويات هذا الكتاب في المجلات والصحف التالية (وفقاً للترتيب الابجدي) :

مجلة الأحد

مجلة الاسبوع العربي

مجلة الشرقية

جريدة الكفاح

مجلة اللبنانية

الفهرست

الأعمال غير الكاملة
غادة السمان

صدر منها :

١ -	زمن الحب الآخر	الطبعة الخامسة
٢ -	الجسد حقيبة سفر	الطبعة الثالثة
٣ -	السباحة في بحيرة الشيطان	الطبعة الرابعة
٤ -	ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	الطبعة الرابعة
٥ -	اعتقال لحظة هاربة	الطبعة الثالثة
٦ -	مواطنة متلبسة بالقراءة	الطبعة الرابعة
٧ -	الرغيف ينبض كالقلب	الطبعة الثالثة
٨ -	ع . غ . تتفرس	الطبعة الرابعة
٩ -	صفارة انذار داخل رأسي	الطبعة الثالثة
١٠ -	كتابات غير ملتزمة	الطبعة الثانية
١١ -	الحب من الوريد الى الوريد	الطبعة الثالثة
١٢ -	القبيلة تستجوب القتيلة	
١٣ -	البحر يحاكم سمكة	
١٤ -	تسكع داخل جرح	

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص . ب : ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان الأخرى

- عيناك قدري	الطبعة الثامنة (قصص)
- لا بحر في بيروت	الطبعة الثامنة (قصص)
- ليل الغرباء	الطبعة السابعة (قصص)
- رحيل المرافىء القديمة	الطبعة الخامسة (قصص)
- حب	الطبعة الثامنة
- بيروت ٧٥	الطبعة الخامسة (رواية)
- اعلنت عليك الحب	الطبعة الثامنة
- كوابيس بيروت	الطبعة السادسة (رواية)
- ليلة المليار	(رواية)
- غربة تحت الصفر	
- الاعماق المحتلة	
- أشهد عكس الريح	

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص . ب : ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠



هذا هو الكتاب الأول في سلسلة « الأعمال غير الكاملة » لـ « غادة السمان ».

و « زمن الحب الآخر » ، يضم قصة طويلة « الحياة بدأت للتو » ومسرحية من فصل واحد « الطوفان » ، ومجموعة قصص قصيرة « ذبابات بحثاً عن سهول القمر — آخر قصة غير بيضاء — ليل الغرباء — الديك ».

وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن : « الجسد حقيبة سفر » ، « السباحة في بحيرة الشيطان » ، « ختم الذاكرة بالشمع الأحمر » ، « اعتقال لحظة هاربة » ، « مواطنة متلبسة بالقراءة » ، « الرغيف ينبض كالقلب » ، « ع غ تتفرس » ، « صفارة إنذار داخل رأسي » ، « كتابات غير ملتزمة » ، « الحب من الوريد إلى الوريد » و « القبيلة تستجوب القتيلة ».

منشورات غادة السمان